أيام فى (تايلاند)

وصلت إلى « بانجكوك » عاصمة تايلاند فى الساعة الثانية بعد الظهر. وجدت سائق سيارة الفندق ينتظرنى . إنه شاب نحيف ، شعره الأملس الأسود يسقط فوق جبهته فيزيحه عنها بحركة سريعة من الرأس . قاد السيارة الفولكس بسرعة جنونية طوال الخمسين دقيقة من الضاحية التى يوجد فيها المطار إلى فندق فيكتورى (النصر) فى شارع سيلوم . الشارع عريض ناعم كالحرير يندفع فوقه سيل لا ينقطع من السيارات تكاد مقدمة كل سيارة تصطدم بمؤخرة الأخرى . والجميع يسيرون بالسرعة الجنونية نفسها كأنهم حلقات سلسلة واحدة ، مترابطة ، تتحرك فى وقت واحد ، وتقف فى وقت واحد ، أو كعربات يجرها قطار .

أول الأمر شعرت بالجزع . ولكن بعد قليل تركت نفسى بين يدى السائق وقد أحسست بالاطمئنان إزاء مهارته الواضحة . وطوال الأسبوع الذى أقمته فى « بانجكوك » كنت أتعجب من دقة المرور وسرعته . الجميع يحترمون القواعد . الأولوية تعطى دائماً للذى يأتى من اليمين ، ولا أحد يخرق هذه الأولوية . وآلة التنبيه لا تستعمل أبداً . والمشاة هم سادة الطريق . فسائق السيارة يقف فى هدوء لينتظرهم حتى يجتازوا الشارع أيًّا كانت النقطة التى يجتازونه منها . ولا أحد يتشاجر أو يلوح فى عصبية ، أو يبدو عليه الضيق . وكل هذا فى سرعة ونظام يبدو كالحلم الميكانيكى المنساب . تذكرت المرور فى شوارع أمريكا ولكننى أحسست هنا بأن الدقة تفوق دقتهم .

لقد لفت نظرى من أول لحظة ظاهرتان : أثر الغرب ، وأمريكا بالذات ، فى هذه المنطقة من العالم ، والقدرة الآسيوية على المحاكاة . والتقليد ، وعلى تقبل كل نظام دقيق ، مهما كان صارماً فى دقته .

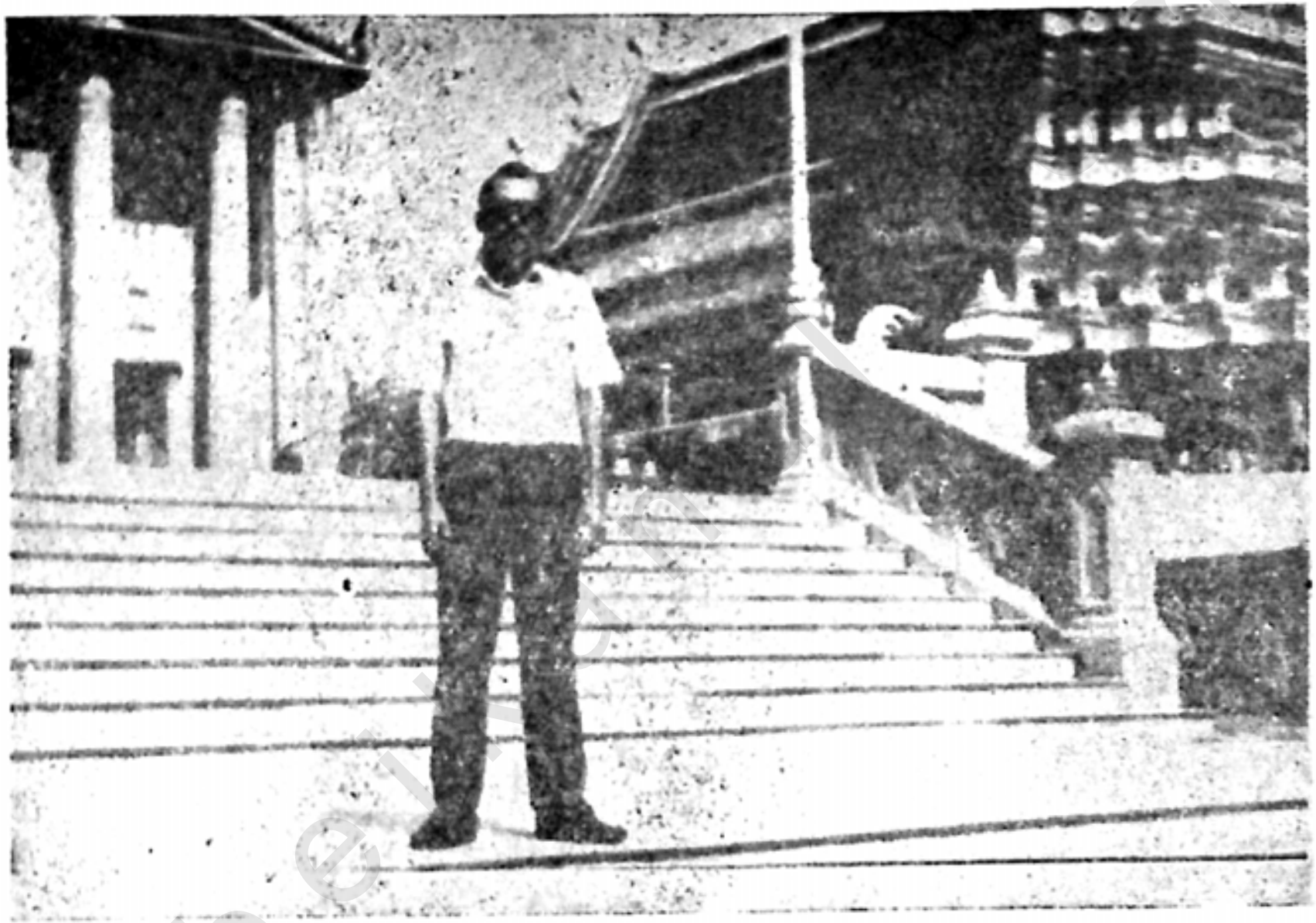

تايلاند : (بانجكوك) ، « أحمد أمينو الدين » سائق السيارة

وهاتان الظاهرتان كان مقدراً أن أراهما فى عديد من نواحى الحياة التى شهدتها فيما بعد .

الشارع الطويل العريض يخترق الحقول الخضراء التى تمتد إلى الأفق على الجانبين . ولكن على حافة الطريق ترتفع خطوط متصلة من المبانى الحديثة يغلب فى تصميمها الحديد الأسود والزجاج ، وأعمدة المسلح . العمارة أمريكية والمبانى شركات أمريكية ، أو فروع لهذه الشركات أضيفت إليها أسماء تايلاندية . كلها بنوك أو شركات تأمين أو شركات تجارية أو مخازن . لم أر طوال المسافة التى استغرقت ساعة تقريباً إلا مصنعاً واحداً صغيراً للخشب .

توقفت السيارة أمام الفندق . فى لمح البصر وجدت نفسى فى الحجرة الصغيرة الأنيقة أستمتع بتيار الهواء البارد المنبعث من جهاز التكييف ، وقد أدركت لأول مرة كيف أن هذه الأجهزة يمكن أن تحول المبانى والحجرات إلى جنة صغيرة يأوى إليها الناس هرباً من القيظ العنيف ، والرطوبة الخانقة التى تميز هذه المنطقة من العالم .

أفرغت حقائبى ، فى الدواليب والأدراج . وبعد حمام ساخن ارتديت ملابس نظيفة ، وتأهبت للنزول . كان أمامى يوم ونصف إجازة أزور فيها المدينة قبل أن أبدأ المهمة التى جئت من أجلها ، فى تايلاند ، وعلى الأخص فى العاصمة « بانجكوك » . الإجازة نصف يوم السبت ويوم الأحد بأكمله .

نزلت إلى الشارع بشعور المقدم على مغامرة مثيرة لأجد نفسى فى قلب « بانجكوك » : مدينة عصرية يسكنها خمسة ملايين نسمة وتتسع بسرعة جنونية . فالمهاجرون إليها من الريف الذين يضافون إلى العدد الضخم من المواليد الجدد كل سنة يجعلون معدل النمو الطبيعى فى عدد سكانها يصل إلى ٦ ٪ . المدينة مبنية على مساحات شاسعة ، وفى كل

مكان ترتفع مظاهر العمران السريعة فى شكل مبان حديثة على الطراز الأمريكى ، تقيمها فى أغلب الأحيان شركات عقارية أمريكية .

و « بانجكوك » فريدة فى أنها المدينة الوحيدة الكبيرة فى تايلاند . حيث إن المدينة الثانية بعدها والتى تبعد عنها بمسافة لا تزيد عن ١٥٠ كيلو متراً ، لا يسكنها سوى ١٠٠,٠٠٠ نسمة .

نساء المدينة !

سرت فى الشارع متمهلا أعانى من لفحات الحر الحارقة . ولولا الوجوه السمراء ، والعيون المسحوبة الآسيوية ، والأجساد القصيرة النحيفة لاعتقدت أننى فى مدينة أمريكية : البيوت ، والشوارع والشرطة بخوذاتهم المتميزة ومسدساتهم . وعصيهم القصيرة من المطاط والتى تتدلى من الحزام ، ومتوسيكلاتهم الحمراء الضخمة التى تنطلق بصوت كالرعد ، أو سياراتهم الفارهة تزحف عبر الشوارع ، ككلاب الصيد تبحث عن رائحة الضحية . ومحلات « السوبرماركت » الكبيرة تستمتع فيها بنعمة التكييف ، وتتجول عبر ردهاتها الطويلة بين الأقسام والأدوار المختلفة لترى كميات وأنواعاً لا تنتهى من البضائع المستوردة . حتى المأكولات هى بالضبط تلك التى كنت أبتاعها فى شيكاغو أو واشنجتون ، أو نيويورك .

« المينيجيب » القصير للغاية يرتديه جميع النساء فى المدينة ما عدا كبار السن أو ساكنات الأحياء الفقيرة . وأنت لا تستطيع أن تحدد سن المرأة التايلاندية أو الرجل التايلاندى فجميعهم يبدون كالشباب . والتغيير يحدث عندهم ربما فى وقت ما بعد الخمسين ، لتجد نفسك فجأة أمام امرأة عجوز ، وكأن ثقل السنين ينقض عليها دفعة واحدة ، أو كأن الشيخوخة مرض مفاجئ يصيب الإنسان بدون مقدمات . وبقدر ما كنت أحس بسحر هذا الشباب الدائم ، كنت أشعر أمام هذا العجز الذى يوحى بالموت بالقدر نفسه .

والنساء في بانجكوك جميلات للغاية. فهنا البشرة البيضاء ، والشعر الأسود المنسدل مثل الحرير ، والأجساد النحيفة الرشيقة في الثوب القصير تسير في ليونة وخفة وسرعة عبر شوارع المدينة ، وهن يرتدين الأحذية المنصة الخالية من الكعوب . فالجمال هنا يقترن بالبساطة وبالأشياء العملية . إنك لا تجدهن يتسكعن في الطرقات ، بخطوات متهالكة متعثرة فوق الكعوب العالية ، مثل أسراب البط المرهقة . بل الخطوات سريعة تحس أنها تقود إلى هدف محدد ، والوجوه والعيون متجهة إلى الأمام ، لا تنظر هنا أو هناك ، ولا تجد تجمعات من النساء يحلقن في « الفترينا » ويتنقلن من محل إلى محل في غزوة شرائية تستمر عدة ساعات .

هذا السلوك العملي لاحظته في الرجال أيضاً . ولكنه لفت نظري في النساء بشكل خاص . فعندما ذهبت إلى تايلاند كنت أظن أنني سأجد كثيراً من المظاهر التي تشترك فيها البلاد النامية ، ومنها ظاهرة التعطل والبطالة بين النساء . كنت أظن أن النساء في المدينة شأنهن شأن نساء القاهرة مثلا ، أغلبهن من ربات البيوت .

ولكن منذ أول يوم لاحظت ظاهرة لفتت نظري وأنا أسير عبر شوارع المدينة الكبيرة . في كل عمل يقوم به الرجال تجد إلى جوارهم النساء . لا تجدهن فقط في المكاتب ، والمحلات التجارية . والمهن ، ولكنهن أيضاً في جميع الأعمال مهما كانت شاقة . إنهن يقدن « التاكسيات » والموتوسيكلات ، ويقفن مناديات عند أماكن الوقوف المحددة للسيارات وقد حملن بين أيديهن دفاتر « الوصولات » التي تعطى لصاحب السيارة عند دفعه المبلغ المقرر لوقوف السيارة .

وهذا هو ما رأيته أيضاً في « سنغافورة » وفي « كوالالامبور » عاصمة ماليزيا . إنهن يشاركن الرجل في العمل عندما يفتح مطعماً أو محلا تجاريًا . فتجد الزوجة والأخوات والبنات جميعهن يساهمن في أعمال الإدارة ، وفي خدمة الزبائن ، بل في كثير من الأحيان يقمن وحدهن

بجميع هذه الأعمال لا فرق بينهن وبين الرجال . وفى المواقع العديدة التى تنشأ فيها العمارات ، والمبانى الجديدة يمكنك أن تشهدهن وهن يصعدن السقالات العالية حاملات « قصاع » الأسمنت وأحمال الطوب ؛ أو يقمن بخلط الأسمنت ، أو يشاركن فى عملية البناء نفسه . فكما يوجد أسطوات من الرجال يوجد أيضاً « أسطوات » من النساء . ينتمين إلى مهنة « البنائين » .

وهذه الظاهرة غير المتوقعة تعطيك إحساساً بالرقى والتقدم ، فهى ظاهرة تنعكس على عديد من نواحى الحياة الأخرى . فالعلاقات بين الجنسين ، بين الرجل والمرأة ، بين الشبان والشابات لا يشوبها كثير من الأعراض المرضية التى تجدها حيث تبقى المرأة أو الفتاة سجينة بين جدران البيت . فلم أر طوال الأسبوع الذى أقمته فى « بانجكوك » تجمعات من الشباب على نواصى الشوارع يتشغنون بتلك المعاكسات السخيفة التى أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية ، ولم ألمح تلك النظرات العطشى على وجوه الشبان والشابات ، والرجال والنساء ، التى نراها وهى تتبادل بطريقة صريحة أو خفية فى الطرقات ، وعلى الأرصفة ، ومن نوافذ البيوت .

وعندما انتقلت فيما بعد إلى خارج « بانجكوك » إلى المناطق الريفية المجاورة التى تبعد ما يقرب من ٦٠ كيلو متراً عن العاصمة ، وجدت صوراً أخرى من الظاهرة نفسها فهذه المنطقة تتخصص فى زراعة الفواكه ، والخضراوات ، لتموين المدينة . والناس يعتملون فى تنقلاتهم على مجارى المياه ، على القنوات والأنهار ، التى تشق الساحات الواسعة بشبكة مترامية من المسالك المائية ، والتى يعبرونها فى القوارب الرفيعة يدفعونها عبر المسافات الطويلة إما بالاعتماد على المجاذيف أو على المحركات الصغيرة التى يثبتونها فى مؤخرة القارب ، وتندفع هذه القوارب بسرعة كبيرة فوق المياه الحمراء للنهر تشبه فى لونها مياه النيل فى مواسم الفيضان قبل بناء

السد العالى . وترتفع المقدمة المدببة لمقارب فى الهواء ويشق قاعها الحاد كالسكين مياه النهر محدثاً أمواجاً عالية ، وسحباً من رذاذ المتعش . وهذه القوارب تستخدم أيضاً ، كأتوبيسات نهرية ، يمتلكها الأفراد ، ويكسبون من ورائها عيشهم عن طريق نقل الناس وبعض البضائع الخفيفة .

وقد رأيت عشرات ، بل مئات من النساء يقدن هذه القوارب المسرعة أو يدفعنها ، بالمقاذيف ، عبر القنوات الضيقة ، أو فوق الأنهر العريضة المندفعة . وقد وضعن فى القوارب أكواماً من الفواكه ، والخضراوات ، يحملنها إلى « الأسواق العائمة » فى أطراف مدينة « بانجكوك » ، أو بعض الحاجيات التى ابتعنها ليعدن بها إلى بيوتهن .

وهكذا ترى أن المرأة الريفية ، شأنها شأن المرأة فى المدينة تتحمل عبئاً مثل الرجل وتتمتع بقدر كبير من الاستقلال فى العمل .

ولكننى شاهدت مظاهر أخرى لحياة المرأة تبين أن أدران الماضى ما زالت تثقل كاهلها فى كثير من نواحى الحياة . ففى الليلة نفسها خرجت إلى الشارع بحثاً عن بعض نسمات منعشة بعد حرارة اليوم المرهقة . لم أكن قد أدركت بعد أن لا فرق هناك بين النهار والليل ، وأن ليالى الصيف فى القاهرة نعمة لا تجدها فى هذه المنطقة من العالم . فالجو هناك ثابت ، لا يتغير تقريباً بين المواسم ، ولا يختلف بين ساعات النهار والليل . وقفت أمام أحد المحال أتطلع إلى جهاز صغير للتسجيل يصلح لأعمال المكتب . أحسست بشخص يقف إلى جوارى ، فالتفت ناحيته لأجد شاباً وسيماً ، جسده الممشوق يبدو قوياً تحت القميص الأبيض ، والسروال الضيق الذى يلتصق بعضلات فخذية ويظهرها . ابتسم إلى فى ود ثم نطق بلغة إنجليزية ركيكة تشوبها تلك اللكنة الآسيوية الحادة المميزة :

« أتريد أن تشترى هذا الجهاز ؟ »

قلت : « ربما » .

ظننته بائعاً فى الحال . تصادف وجوده فى هذا المكان فسألته :

« أتعرف ثمنه ؟ » .

قال :

« أعتقد أنه يساوى ثمانين دولاراً أمريكياً . »

« حسناً . سأعود غداً لأستكشف مزاياه »

وهممت بالانصراف .

قال :

« أين أنت ذاهب ؟ »

« سأعود إلى الفندق » .

« هل لديك مانع من أن أصاحبك جزءاً من الطريق » ؟

« تفضل » .

سرنا جنباً إلى جنب بخطى بطيئة على الرصيف .

سأل :

« من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« أمعك أسرتك ؟ »

« لا ، وحدى »

سكت برهة ثم قال :

« ألا تريد أن تقضى ليلة ممتعة ؟ »

استيقظت طبيعتى الحذرة فتوقفت وحملقت فى عينيه الهادئتين لحظة وقلت :

« ماذا تقصد ؟ »

« توجد أفلام حية ممتعة يمكنك أن تراها »

« رأيتها من قبل ، ولم أجد فيها شيئاً يجذبنى » .

« حسناً ، وليكن . ألا تريد بنتاً جميلة تقضى معها الليلة ؟ »

« لا أشعر بحاجة إلى ذلك » .

صمت كأنه يفكر فيما يمكن أن يقترحه بعد ذلك . قررت أن أستفيد من هذا اللقاء لأعرف بعض الأشياء . فمثل هؤلاء الرجال يعرفون الكثير . قلت :

« ما الذى دفعك إلى هذا العمل ؟ أنت شاب تبدو عليك الوسامة ، والذكاء . ألا تستطيع أن تختار عملا آخر ؟ »

اختفت ابتسامته وبدت عليه مسحة من الكآبة .

« ربما . فرص العمل ليست كثيرة » .

« لماذا » ؟

« لم أستكمل الدراسة وفرص العمل هنا محدودة . التجارة فى الحرير ، والجواهر ، هى نشاط بالجكوك الأساسى » .

« والمصانع ؟ »

« لا توجد مصانع ؟ »

« والدعارة » ؟

« تجارة رابحة هى والمخدرات »

« وهل تجارتكم هذه منتشرة ؟ »

« جداً »

« ولكن لاحظت أن النساء يعملن عندكم فى كل أنواع النشاط . فهن لسن فى حاجة إلى مثل هذا العمل »

« نحن نجلبهن من المناطق الريفية الفقيرة ، البعيدة عن « بانجكوك » ، حيث تضيق سبل العيش إلى حد الجوع » .

« وكيف تجلبونهن » .

« نشتريهن من الأسرة ، من الآباء مقابل عقود عمل وهمية فى المدينة . وندفع مبالغاً مقدماً يغريهم على الموافقة . ثم بعد ذلك لا شىء » .

« أتعرف كم عددهن فى بانجكوك ؟ »

« لا أعرف بالضبط ولكن أعتقد أنه يقرب من ستة آلاف » .

كنا قد أصبحنا أمام الفندق . فدعوته إلى الدخول ولكنه أبى . ابتسم ناحيتى مرة أخرى وقال :

« ألا تريد أن تغير رأيك ؟ »

قلت : « أشكرك » .

مد إلى يده وضغط على يدى بسرعة ثم انصرف . رأيت جسمه اللدن القوى يختفى فى الظلام .

وربما كان هذا هو أكثر الجوانب قتامة فى حياة بعض النساء فى بانجكوك . ولكننى أحسست بأشياء أخرى ؛ وإن كان هذا الإحساس لا يستند إلى أكثر من مجرد الانطباع السريع ؛ وخبرة الحياة المترسبة فى الأعماق .

النساء هنا جميلات ورشيقات للغاية . ولكنه جمال من نوع غريب ؛ لا حرارة فيه ولا شخصية كأنهن دمى مستسلمة وديعة يتبعن الرجال ، ويأتمرن بأمرهم بدون مناقشة . ومظاهر التحرر تحس أن فيها شيئاً غير سوى ، كأنه تحرر فى المظهر ، فى الجسد ، وربما تحرر من الخلق ، ولكنه ليس تحرراً فى الفكر ، وفى العواطف . لقد فوجئت بعدد كبير من النساء يدخن فى أثناء السير فى الشوارع . ولا أعتبر نفسى من المتزمتين

ولكن هناك شيئاً ما فى هذا المنظر أشعرنى بوجود نوع من التحلل ربما زحف إلى المدينة . إنى بانجكوك بالذات .

على كل حال لم أستطع أن أرى شيئاً كثيراً فى هذا اليوم الأول . ربما كنت أوفر حظاً فى غد فأمامى يوم بأكمله أستطيع أن أتجول فيه عبر المدينة . وألتقط الأشياء وأسجلها . فقدرة الإنسان على الملاحظة تتضاعف فى أثناء السفر وكأن جميع مسام الجسم وحواسه مفتوحة لتستنشق مما حولها ؛ كالإسفنج يمتص حتى التشبع .

صديق السائق

فى صباح اليوم التالى كنت أسير فى شارع سيلوم أمام فندق « كاثاى باسفيك » حينما استوقفنى رجل طويل القامة بشرته سمراء . لولا وجناته العالية . البارزة قليلا . واستطالة عينيه الصغيرتين لكان من الممكن أن يكون من أهل أسوان . قال لى بالإنجليزية :

« صباح الخير ياسيدى . هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟ »

توقفت عن السير وابتسمت قائلا :

« أية خدمة تلك التى تقترح أن تقدمها لى ؟ »

« لدى سيارة أجرة . ويمكننا أن نتجول فيها . وأن ترى مدينة بانجكوك » .

ترددت لحظات قبل أن أجيب . شىء فى هذه المدينة ينذر بالمخاطر المستترة كنت قد تعودت عندما أنزل إلى مدينة غريبة أن أتجول فيها سيراً على الأقدام . أو أن أركب المواصلات العادية . وربما تكون هذه الوسيلة مرهقة إلى حد كبير . ولكنها أفضل طريقة للتعرف على الأماكن الجديدة ، ودراسة معالمها وشوارعها ، وحياة الناس فيها . فضلا عن أن هذه الطريقة تجعلك تختلط بالناس ، وترى كيف يعملون ويعيشون تتبادل معهم الأحاديث فى شتى المسائل .

ولكن هذه المرة ليس أمامى سوى يوم واحد . وبعد ذلك سأكون مشغولا بالاطلاع على برنامج تنظيم الأسرة فى تايلاند الذى اجتزت من أجله مسافة خمسة آلاف كيلومتر من القاهرة إلى « بانجكوك » . المعرفة لا تأتى إلا بشىء من الخاطرة . بألا تبقى منغلقاً . منعزلا فى قوقعتك ماذا يمكن أن يحدث ؟ إنه سائق سيارة مرخص يقف أمام باب أحد الفنادق الكبيرة . الاحتمال الوحيد هو أن أسرق وما دمت لا أحمل معى سوى مبلغ محدود من المال فإن الموضوع لا يستحق كل هذا الحذر .

قلت :

« كم تكلفنى هذه الرحلة ؟ »

فكر قليلا كأنه يحسب . ثم أجاب :

« ثلثمائة وخمسون باطاً[1] . وسأبقى معك حتى منتصف الليل » .

نظر فى ساعة يده واستطرد :

« الساعة الآن العاشرة صباحاً .. إذن ستتجول لمدة أربع عشرة ساعة» .

فكرت سريعاً . كنت قد اطلعت على نشرات الشركات السياحية فى الفندق ، وعرفت أن جولة لمدة يوم عن طريق الأتوبيسات تتكلف اثنى عشر دولاراً . قلت :

« أنا على استعداد لأن أدفع مائتين وخمسين باطاً[2] » .

حملق فى وجهى ثم ابتسم :

« من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« من مصر ؟ من بلد ناصر ؟ »

« نعم » .

« أنت مسلم إذن » .

---

(١) ما يقرب من ١٥ دولاراً . (٢) عشرة دولارات تقريبا .

obeikandl.com

« نعم مسلم » .

اتسعت الابتسامة على وجهه وزحفت لأول مرة إلى عينيه ، فأضاءتهما ببريق قوى قضت على نظرة الكآبة التى كانت تطل منها منذ لحظات ، نظرة شخص يزاول عملية تكررت آلاف المرات حتى فقد حماسه لها .

« وأنا مسلم أيضاً . اسمى أحمد الحاج أمينو الدين » .

أخرج من جيبه ورقة صغيرة بيضاء متسخة ، ومزقة من كثرة ما طويت . مد يده بها إلىّ . أخذتها وفتحتها بحرص شديد حتى لا تتمزق تماماً ، لأجد بضع كلمات مخطوطة بقلم من الرصاص . . خليطاً من الحروف الكوفية ، والنسخ ، والرقعة تعلو وتهبط على السطح المصفر فى سطور متعرجة كلمات تدرك أن الذى كتبها لا يعرف إلا أقل القليل عن اللغة العربية .

« أحمد الحاج أمينو الدين » .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين » .

هززت رأسى . طويت الورقة وأعدتها إليه . أخرج محفظته ووضعها بعناية داخلها ، ثم أعاد المحفظة إلى جيب سرواله الخلفى .

قال :

« نحن إخوة . هيا بنا . سيارتى هناك » . أشار إلى سيارة « ستيوديبيكر » تقف بجوار الرصيف عند المدخل الرئيسى للفندق ، فتبعته . فتح لى الباب الخلفى فأشرت إلى المقعد الأمامى . ضحك مسروراً . فتحت الباب وجلست إلى جواره . أدار « الكونتكت » وضغط البنزين بقوة كأنه يشعر بسعادة عند سماع صوت المحرك . تحركت السيارة فى انسياب وانضمت إلى التيار المتدفق عبر الشارع العريض .

سألنى :

« أين تريد أن تذهب ؟ » .

قلت :

« ماذا تقترح ؟ نزور أولا بعض المعابد البوذية » .

« حسناً وبعد ذلك يمكننا أن نتجول فى " سوق الأحد " . ثم نذهب إلى مدينة " تيملاند " فى ضواحى " بانجكوك " » .

« ما هو سوق الأحد هذا . أليس سوقاً مثل كل الأسواق ؟ » .

« نظر إلىّ كأنه يرثى لحالى ثم ابتسم ابتسامة غامضة كمن يحتفظ بمفاجأة سارة . وقال :

« سترى بنفسك » .

« لم تحدثنى عن مدينة تيملاند » .

« إنها مدينة سياحية » .

« أنا لا أحب المدن السياحية » .

« ولكن كل من يحضر إلى بانجكوك يذهب لزيارتها » .

« أنت منظم الجولة وسأتركها لك . ولكننى سمعت عن سوق اسمه " السوق العائمة " . لماذا لا نذهب إليه ؟ » .

« لك حق . إنه يستحق الرؤية . ولكنه يبدأ فى الصباح الباكر وينتهى الساعة الحادية عشرة . ولم يعد أمامنا متسع من الوقت فالساعة الآن العاشرة والنصف » .

« ولكنى أريد أن أذهب إلى النهر هناك » .

« وهو كذلك . هذا ممكن » .

« ولى طلب آخر . أريد أن أذهب إلى الريف . وأن أزور أسرة ريفية . سأقضى الأسبوع كله فى بانجكوك . وربما تكون هذه فرصتى الوحيدة لرؤية الحياة خارج العاصمة » .

« وهذا ممكن أيضاً » .

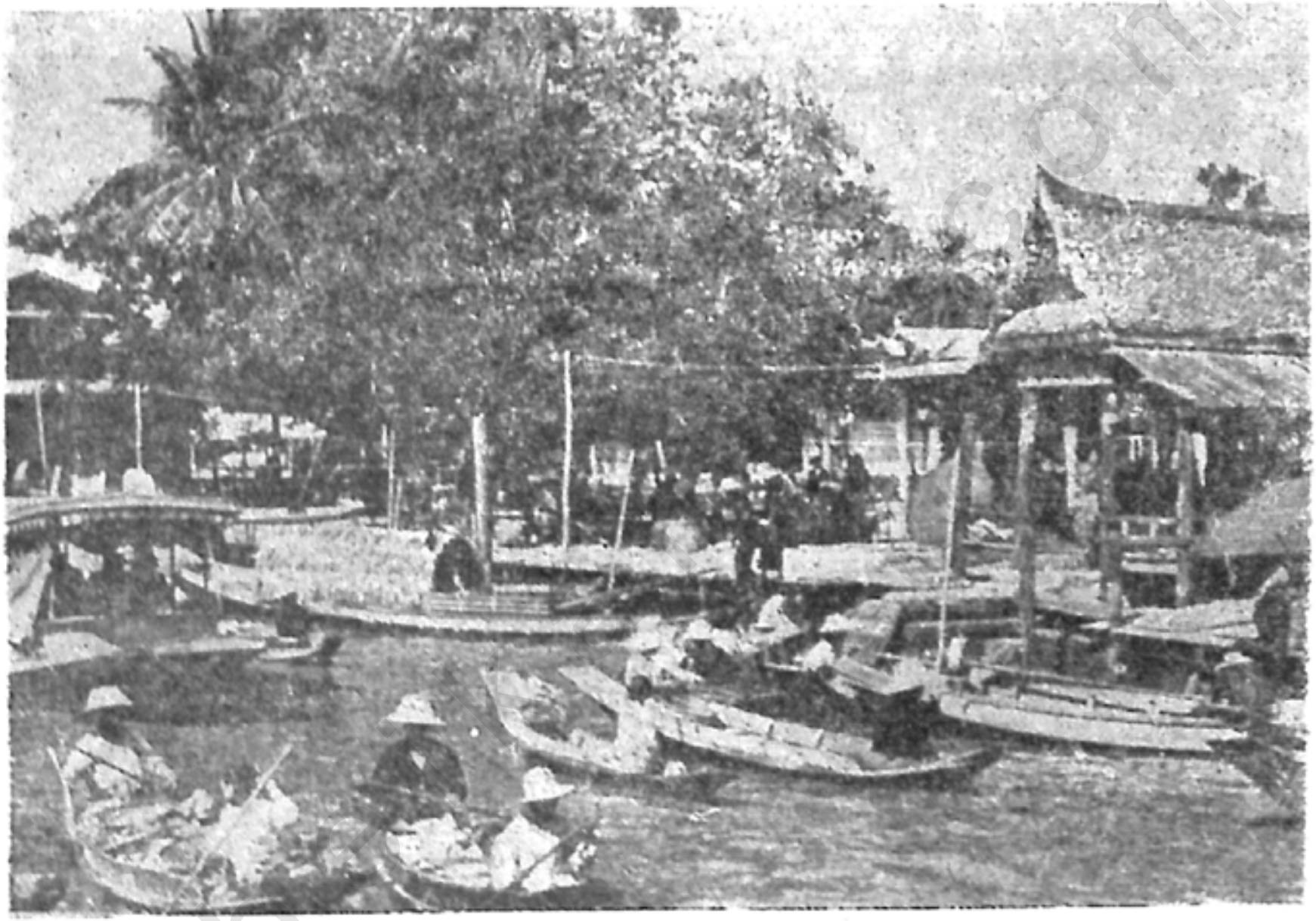

تايلاند : السوق العائمة

الركشا والإنسان !

تطلعت إلى الشارع المزدحم . كنا نمر عبر الحى الصينى . حركة لا تنتهى من الناس . والسيارات . والمتوسيكلات . هنا وهناك ترى « الركشا » عربة صغيرة يركب فيها اثنان ويجرها رجل : ترى عروقه النافرة فى العنق . والأنفاس اللاهثة . والعرق المتحدر على وجهه . وجسمه ، يجعل من القميص الذى يرتديه خرقة مبللة بصدره ، وبطنه وظهره . منظر غريب يشعرك إلى أية درجة يمكن أن يصل إليه امتهان الإنسان لأخيه الإنسان . للإنسان الفقير الذى يبحث عن لقمة العيش يسكت بها بعض آلام الجوع . طوال المدة التى قضيتها فى المدن الآسيوية المختلفة كنت أرى هذا المنظر المثير للشفقة والغضب فى آن واحد ، منظراً كان يملأ قلبى حزناً ثقيلا . ويفسد علىّ متعة البحث عن الجديد. عرض علىّ أن أركب « الركشا » . كنت أرفض بإصرار . لم أكن أتصور نفسى جالساً فى المقعد والرجل العرق يجرنى وكأنه دابة . وأمام إصرارى هذا كان أصدقائى ينظرون إلىّ فى دهشة . إن « الركشا » شىء عادى فى حياتهم . شأنه شأن عديد من مظاهر البؤس التى تمر أمام عينى فى شوارع القاهرة . فلا تثير انفعالا خاصاً إلا بين الحين والحين . التعود . عدو خطر فى حياة الإنسان .

ولكن « الركشا » العادية تنقرض فى شوارع بانجكوك ، على الأقل ، مثلما انقرضت العربة الحنطور فى القاهرة . تذكرت ليلة أن ركبنا عربة حنطور فى الإسكندرية من محطة الرمل حتى محطة بولكلى : أنا وزوجتى والفتاة الفارعة ذات العينين الجادتين التى تركتها وسافرت ، والصبى الصغير ذو النظرة العميقة المتأملة فى المقلتين السوداويين . كان الهواء رقيقاً ، يعبث بالوجوه ، والأعناق بأصابعه الحادثة المريحة ، والقمر

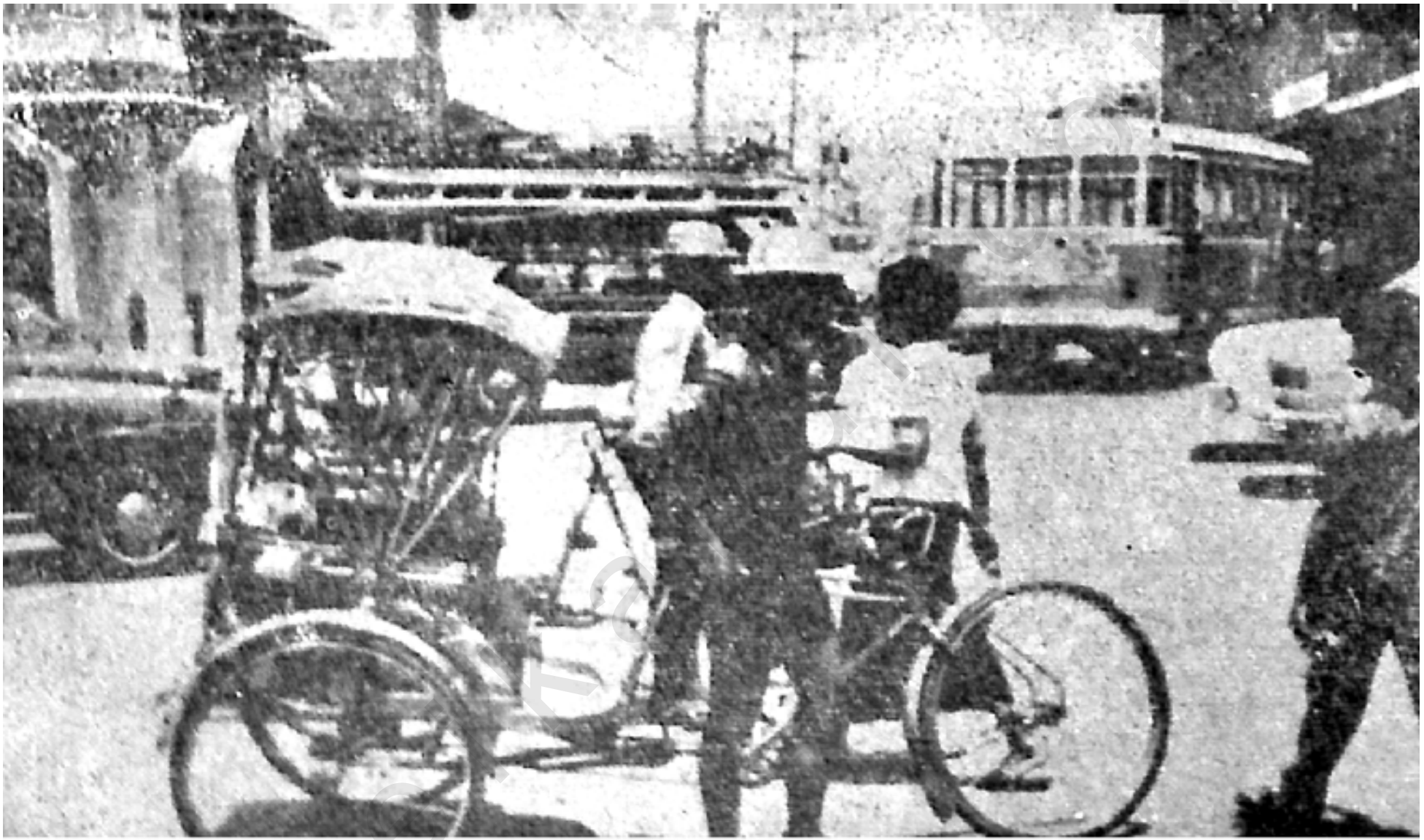

تايلاند : (بانجكوك) ، الركشا والإنسان الذى يجرها

المستدير معلق فى السماء . يسبح كالكرة الفضية . والصبى الصغير يجلس فى المقعد العالى بجوار السائق يسأل عن الحصان : كيف يأكل ؟ وكيف ينام ؟ كيف يستطيع أن يجرى هكذا بدون أن يتعب ؟ والرجل العجوز يرد عليه بلغة الساحل المميزة . تحمل فى طياتها عبء السنين الطويلة . والرضى . وتتخلل صوته نبرات من السعادة إزاء هذا الرزق غير المتوقع . وصهيل الحصان يرتفع فى الليل الصامت . وصوت الحوافر المنتظم على الأسفلت . والرجل يقول : « شوف بيصهل إزاى . . فرحان بالقمر بيستغرب » .

الإنسان « والركشا » والحياة تزحف لتطوى كثيراً من الأشياء . الآن تحولت إلى دراجة يركبها الرجل وتجر وراءها عربة صغيرة يجلس فيها اثنان أو ثلاثة من الركاب . وعضلات الفخذ والساق تبرز من فرط المجهود . تبدو وكأنها ستنفجر . والوجه شاحب من قلة الغذاء فتندهش كيف يستطيع الجسم النحيل أن يجر كل هذا الحمل الثقيل . الإنسان الذى يتحول إلى حيوان . الإنسان الذى يظل تحت مستوى الحيوان .

ولكن الحياة تزحف . وتتقدم . أحياناً . ولكنها تتقدم . ومكان الدراجة التى أصبحت نادرة هى أيضاً تجد الموتوسيكل مزوداً بعربة صغيرة تسع ثلاثة أشخاص . وهذه العربة الصغيرة تمرق عبر شوارع بانجكوك بالمئات . . صغيرة . وعملية . وسريعة . وقادرة على أن تشق طريقها وسط الزحام . مظهر آخر من مظاهر الروح العملية التى يتميز بها هؤلاء القوم . ليسوا مثلنا . . فهم لا يهتمون بالمظاهر كما نهتم نحن . ولذلك تجد الشوارع مكتظة بمئات من الدراجات البخارية . يذهبون عليها إلى العمل . أو يركبونها للتنزه . وعلى المقعد الخلفى تجلس الحبيبة أو الزوجة وأحياناً الطفل أيضاً أو تنطلق مسرعة فى سباق مثير . يقودها الشبان وقد ارتدوا القبعات المعدنية الملونة يحمون بها رءوسهم فى الحوادث .

القبعات الملونة . والقمصان الملونة . والأثواب الملونة . حتى

العربات الصغيرة الشبيهة في الموتوسيكلات والتي تقوم مقام التاكسيات تجدها مزركشة بنقوش الرسوم البوذية المميزة ، ومزدانة بمساحات من الألوان التي تخطف العين وتولد إحساساً بالفرح . فالناس هنا يحبون الألوان . والألوان تبث الحياة والغبطة في الأشياء .

الطبيعة عرفت دائماً بالألوان : ألوان الأشجار والزهور والسماء والشلالات . وغروب الشمس في الأفق .

اللون الرمادي عنوان الكآبة . واللون الأسود رمز الحزن والموت .
فلماذا نتعلق بهما ؟ هكذا يقولون .

معبد « وات فو »

دخلنا من الباب الرئيسي فقال صديقي أحمد الخاج :
« هذا معبد " وات فو " البوذي » .

لست من هواة العمارة . ولا أفهم عنها الكثير . ولكنني لم أفقد بعد القدرة على الاندهاش أمام كل شيء جديد . هذه الأبنية الملونة بقبابها المستديرة المذهبة . والألوان الغنية التي تتنوع وتتشابك فوق مساحات الجدران . وكتل الحجر المدببة الرفيعة التي ترتفع في رقة متناهية كأنها تريد أن تنفذ إلى أسرار السماء . سعي الإنسان إلى أعلى يبحث عن أسرار الكون . والأشجار الخضراء ترتعش في هدوء داخل الأفنية الواسعة . والحمام يطير ويحط في اطمئنان تحت أقدام الوافدين من كل أرجاء البلاد . من كل أرجاء العالم . وقطع الحديد المذهبة تعبث بها الرياح الخفيفة فتصدر رنيناً موسيقياً متصلاً . تبحث عنه طويلاً قبل أن تدرك مصدره . وخرير المياه في النافورة يتناثر رذاذاً ملوناً في ضوء الشمس خفيفاً على وجهك وعلى يدك . ليزيل عنها آثار الحرارة والإرهاق . وهذا السلام . السلام العميق الذي يستولي على فؤادك وعلى قلبك فتحيا في الزمن الطويل . الطويل . وفي الإحساس

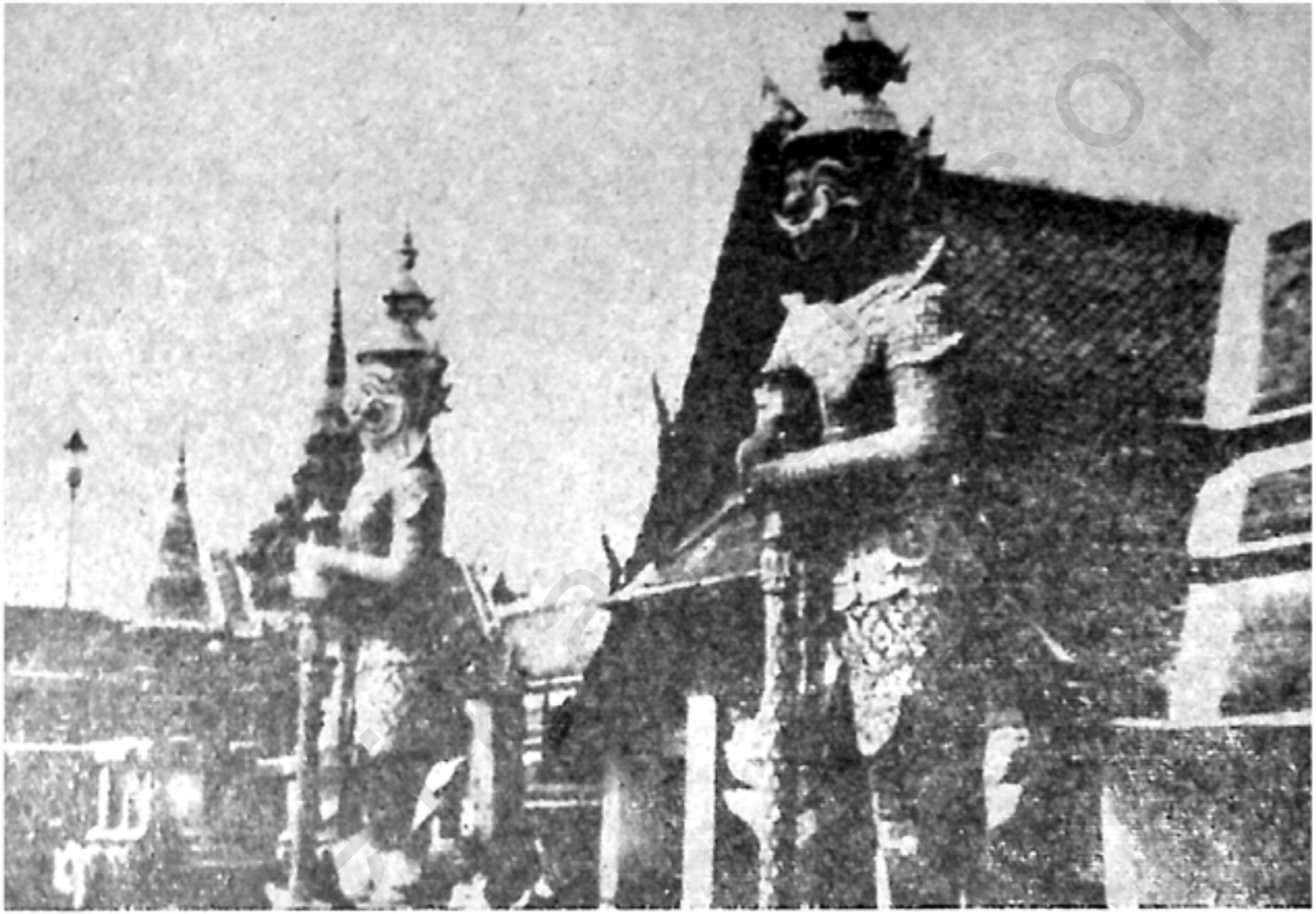

تايلاند : (بانجكوك) ، تماثيل أسطورية فى معبد « وات فو »

بعراقة الإنسان والإنسانية .

الأرصفة الواسعة خارج المعبد مزدحمة بمئات الناس يخطون في هدوء فوق مربعات الحجر الأبيض . والأسرة تدخل بأكملها : الزوج وكبار السن . والأطفال . فزيارة المعبد مهمة اجتماعية بل متعة اجتماعية ينبغي أن يشارك فيها الجميع . وطقوس ينبغي أن يمتثل لها الجميع . إنهم يدخلونه وكأنهم يدخلون مكاناً ألفوه وأنسوا به منذ زمن بعيد . كأنهم يدخلون بيتهم يتصرفون ببساطة وبلا تكلف يحملون بين أيديهم الزهور : وفروع النبات الأخضر . وأعواد اللوتس الأبيض المنغلق على نفسه . والشموع والبيض . وبعض الهدايا البسيطة . الأطفال يمرحون . ولكنك تحس أن خطواتهم أبطأ . وحركاتهم أهدأ كأنهم يدركون هيبة المكان ويعملون له حساباً . والناس يسيرون أفواجاً بدون ضجيج . أو أصوات عالية . يتحدثون في همس بدون أن يبدو عليهم أنهم يهمسون . وكأن الصوت الخفيض شيء معتاد . ويصعدون الدرجات أمام تماثيل البوذا تجلس بأجسامها المكتنزة في صفوف مستقرة . ويركعون لحظات طويلة . ورءوسهم محنية . كأنهم يشعرون بالراحة إلى جوار الآلهة . ثم يشعلون الشموع الرفيعة . ويضعون الزهور . والنباتات . والبيض . والهدايا في أكوام منسقة عند أقدام التماثيل . والأطفال يفعلون ما يفعله الكبار . ثم ينصرفون مجموعات صغيرة . بعضهم إلى داخل المعبد حيث يجلسون دوائر صغيرة فوق البساط المفروش على الأرض ، وكأنهم في إحدى الحدائق ، والبعض الآخر إلى الفناء الخارجي . يتنزهون تحت السماء المفتوحة . وبين الحين والآخر تسمع صوت الأجراس الصغيرة تهتز في الريح ، أو غناء عصفور يذكرك بالبلبل .

لم تتح لي الفرصة لأعرف الكثير عن ديانتهم . ولكنني أحسست أنهم يتعاملون مع آلهتهم وكأنهم جزء من الحياة العادية . فلا توجد فواصل بينهم وبين الناس . وفيما بعد عندما سألت أحد أصدقائي عن

رأيه فى أبرز سمات الديانة البوذية قال :

« إنه دين حياة . يطلب من الإنسان أن يقيم جنته . أن يقيم سعادته على الأرض وأن تكون روحه صافية . لأن ضميره صاف .

ولكننى رأيت شيئاً آخر . كنت سأره كثيراً فيما بعد . هو ذلك القرب من الطبيعة والحب العميق لها . فهم يأتون إلى معابدهم حاملين الزهور . وأعواد النبات الأخضر . والنوتس . والبيض الملون . وعندما تخترق الشوارع تجد فى كل البيوت أصص الورد . والشجيرات الخضراء . فى الشرفات . والنوافذ . وتلمح إلى جوارها أقفاصاً من ركشة صبت أسلاكها فى رسومات بديعة تقفز وراءها أو تطل منها . أجسام العصافير من مختلف الأنواع والألوان . وأحواض الزجاج تسبح فيها الأسماك الذهبية وعندما يذهبون إلى السوق يبتاعون الفواكه والمأكولات . لا بد أن تجد معهم فى الوقت نفسه سبحة من الأزهار . أو كيساً من النايلون مملوءاً بالمياه تحملق من داخلها عيون الأسماك بتلك النظرة الثابتة الغبية التى لا تتغير أبداً . أو قفصاً صغيراً يقفز فى داخله عصفور أو اثنان . هكذا هم . لا ينفصلون عن حياة النبات أو الحيوان . عن الطبيعة . حتى فى قلب المدينة . حيث تحتل الأحجار مكان الأشجار .

سوق الأحد

ونحن فى طريقنا إلى خارج المعبد كدنا نصطدم بثلاثة أفراد يرتدون ملابس رمادية طويلة . شىء ما فى وجوههم ذكرنى بالأغوات الذين كانوا يتولون حراسة الحريم . فى قصور الملوك والسلاطين . فتحس أنهم فى منتصف الطريق بين الأنثى والرجل . رءوسهم حليقة تماماً أزيل منها كل أثر للشعر بالموسى . تلفت إلى مرافقى وسألته « من هؤلاء » ؟ قال « راهبات بوذيات » انتابنى قشعريرة خفيفة . لا أدرى لماذا شعرت إزاءهن بنوع من النفور وكأننى أمام إنسان سحقت فيه إنسانيته .

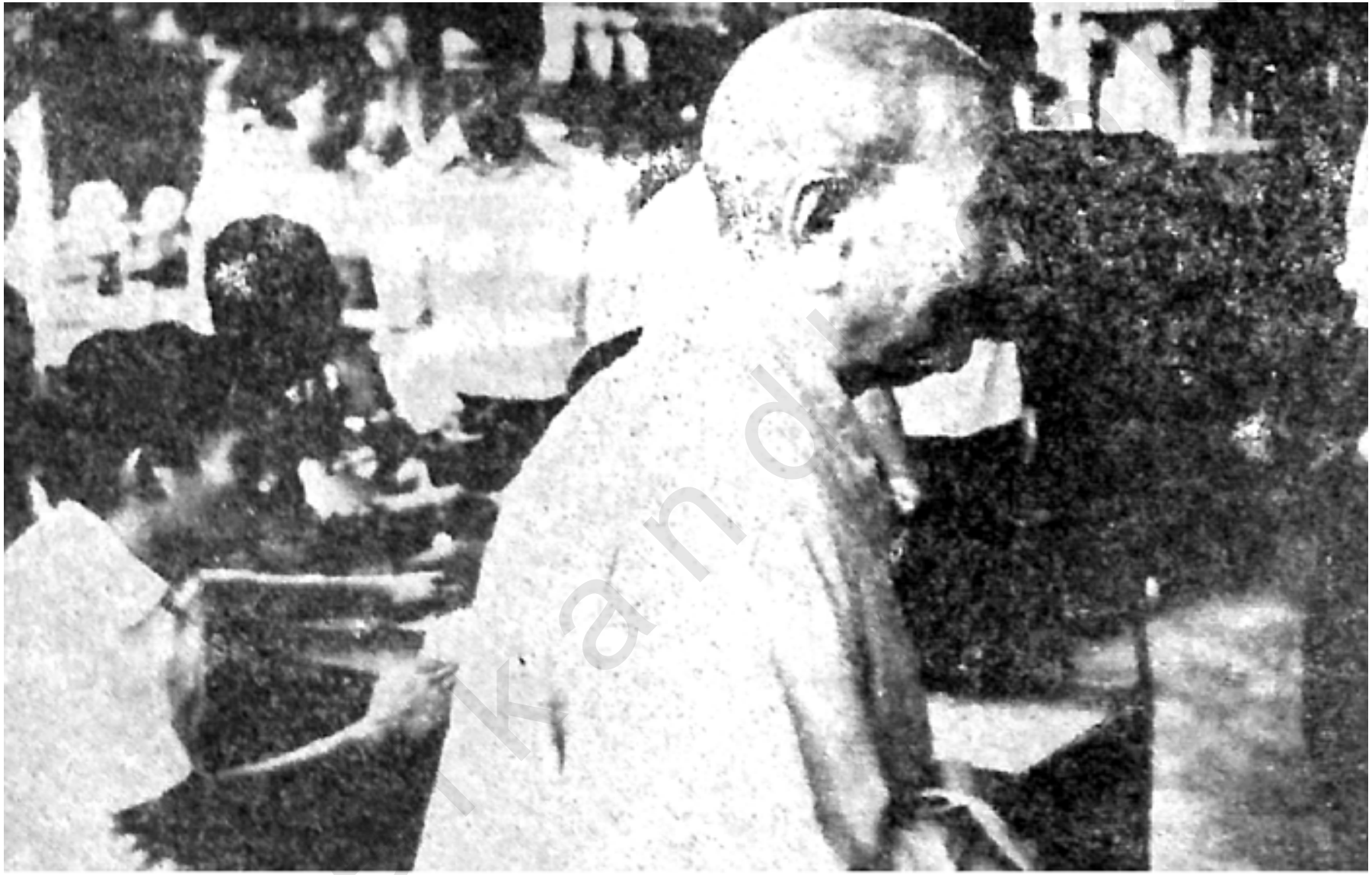

تايلاند : نموذج من الرهبنة البوذية

فأصبح شيئاً آخر . انتهت منه الروح . . مجرد جسد يتحرك .

خرجنا إلى الميدان الفسيح يسيل منا العرق الغزير من شدة الحرارة . أشار السائق إلى مساحة واسعة من الحشيش الأخضر تمتد عبر الميدان . ولا تكاد ترى حدودها بالعين المجردة . شيء يشبه سعب الكرة الضخم . فوقها نصبت أسقف صغيرة متعددة من القماش الخشن الملون أو من تيل القنوع . مثل صوان مقام بغير نظام . وقد ثبتت هذه الخيام العارية الخالية من الجدران بأعمدة من الخشب . ومئات الحبال . وبين الخيام ممرات ضيقة تفسح الطريق لمرور طوابير لا تنقطع من الرجال والنساء والأطفال زحفوا في أعداد تصل إلى عشرات الآلاف يسيرون في هدوء ويتحدثون بهذا الهمس الغريب الذي لا تكاد تسمع كلماته ، فتتجمع أصوات هذا الهمس المنخفض في طنين كطنين خلية النحل . والناس يتوقفون أمام كل خيمة ليتطلعوا إلى أكوام البضائع المرصوصة بعناية يشترون من الرجال والنساء والأطفال الجالسين على الأرض ، أو على مقاعد صغيرة . السلعة التي يريدونها . أو يكتفون بمشاهدتها . ثم يواصلون سيرهم . وخلال هذه الجموع الزاحفة بدون توقف يمر الباعة الجائلون ، يدفعون أمامهم عربات صغيرة ، أو يحملون على أكتافهم الصواني أو عصيا طويلة تتدلى من جانبيها «الجرادل» المملوءة بأنواع مختلفة من الشراب الملون .

تسللنا بصعوبة بين الأجسام الملتصقة . تتحرك ، ثم تتوقف . ثم تتحرك من جديد . لم أر مثل هذا الزحام في حياتي من قبل ، زحام يفوق مباريات الكرة في نادي الزمالك والأهلي أو المواكب الشعبية في أيام الأعياد . نهر آدمي متماسك يتدفق بهدوء كمياه النيل . ولكن برغم الحرارة ، وبرغم الزحام وبرغم العرق المنهمر على الوجوه والأجسام ، لا تسمع صوتاً يرتفع بالصياح ، أو مناقشة حادة ، أو أناساً يتشاجرون ولا ترى أحداً يدفع الآخرين ليشق طريقاً عبر الأجسام المتماسكة

أو يستخدم مرفقيه ليفتح ثغرة بين السائرين ، أو يدوس على قدم من فرط الاستعجال . هذا الهدوء . وهذه الرقة فى معاملة الناس ، وهذا الحرص على عدم إزعاج الآخرين أو مضايقتهم ، شهدته طوال الأسبوع وأنا أتنقل بين أطراف المدينة الواسعة . فى أشد الشوارع والأماكن زحاماً لم أر طوال إقامتى هناك مشاجرة واحدة ، ولم أسمع أصواتاً ترتفع فى مناقشة حادة ، أو حتى فى شىء من العصبية . ولم أحس أن أحداً يحتد على أحد . لم أهتد إلى أسباب هذه الظاهرة التى تثير التأمل وبخاصة إذا قارنتها بما يحدث فى بلادنا . هل هو طبع الشعب ؟ هل هى الحضارة ؟ أو ماذا ؟ أسئلة ليس لها جواب . فالحضارة المصرية أعرق وأكثر أصالة والشعب المصرى تعود الصبر والهدوء من آلاف السنين ومع ذلك تشعر أن الحياة فى القاهرة أصبحت كالسباق الذى لا تحكمه أية قواعد . فالأمهر هو الذى يركب الأتوبيس الأول حتى إذا داس على النساء والأطفال فى سبيل ذلك ، وهو الذى يقتحم الطريق بسيارته من اليمين أو اليسار أو حتى فوق الرصيف طالما أنه سيمر قبل غيره ، وهو الذى يستطيع أن يحطم نظام الطابور ويحصل على تذكرة سينما قبل غيره وهو الذى يعلو صوته فوق الآخرين ، ويستعد للشجار فى أية لحظة . ظواهر تنمو وتتفاقم كل يوم ، كالغابة يتسابق فيها الناس ، يحاول فيها كل منهم أن ينقض على حقوق الآخرين ، ويضطر فيها كل شخص أن يكون على حذر حتى يدافع عن حقه بالأظافر والأسنان .

هذا الشعور ما انتابنى قط هناك . قد يكون ذلك لأن الأجنبى لا يلاحظ أشياء كثيرة وبخاصة إذا كانت زيارته قصيرة . ولكن حياة الشارع ليست كحياة المكاتب والبيوت . كل شىء فيها يتم علناً لا تحجبه عن الرؤية أستار .

سرنا مع السائرين نشهد هذا المنظر الفريد من نوعه . كل شىء يمكن أن يتصوره الإنسان يباع هنا . مئات ومئات من مختلف أنواع

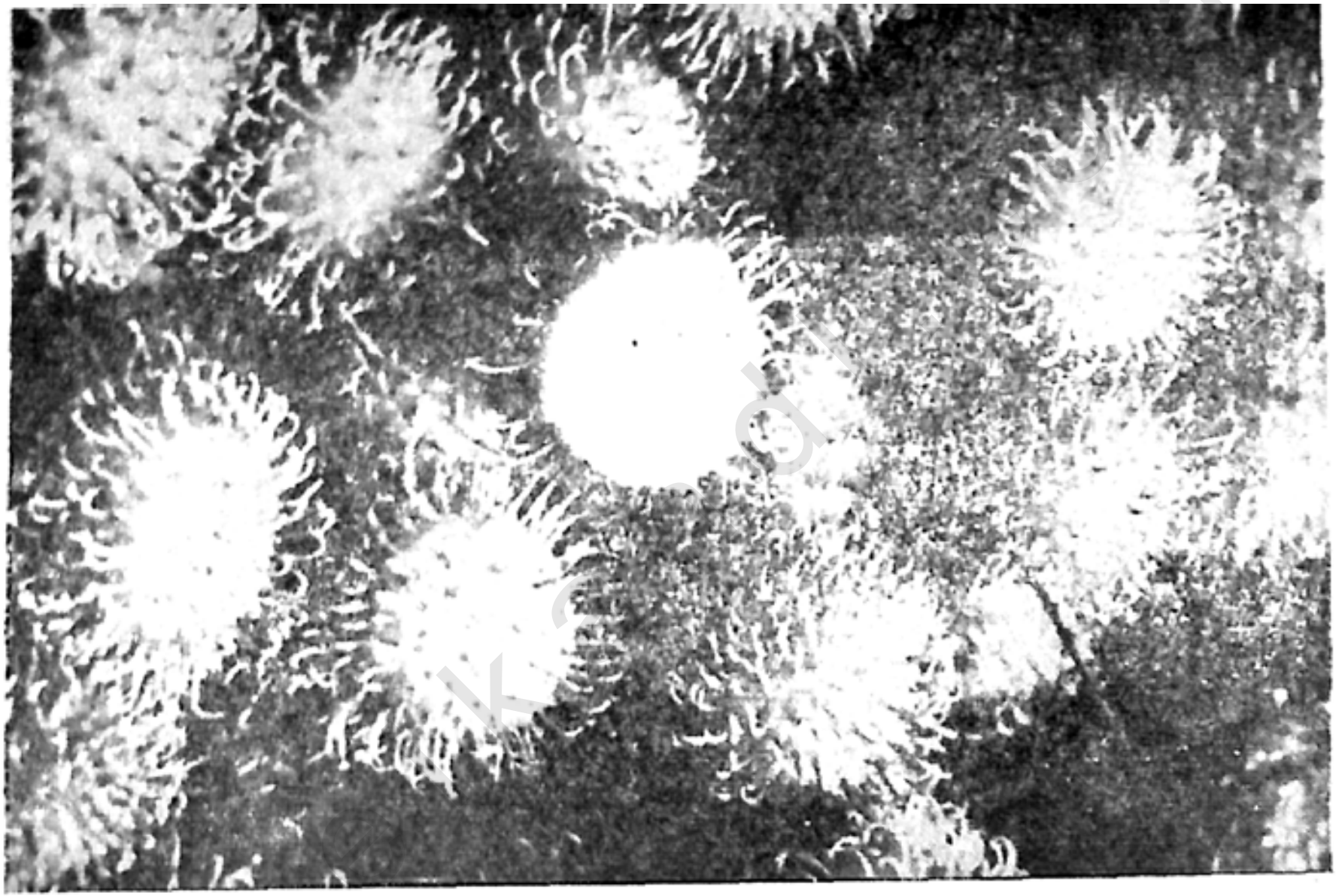

تايلاند : الرامبوتان . فاكهة منعشة محاطة بغلاف من شعيرات حمراء

الأطعمة . كنت أحاول أن أعرف بعضها من صديق السائق . ولكن أغلبها ظل مجهولا بالنسبة لى . الموز الأصفر يصل حجمه إلى ثلاثة أضعاف الموز فى بلادنا تضع الأصبع الطرى الأبيض فى فمك فينساب الطعم اللذيذ فوق لسانك . وتستنشق رائحته العطرة الخفيفة والنفاذة فى الوقت نفسه . و« الرامبوتان » بيضاوى الشكل . يحيط به غلاف خارجى . تختلط فيه درجات من الألوان الحمراء والخضراء . وتغطيه شعيرات كثيفة . فلا يخطر لك على بال بأن هذه الثمرة الغريبة يمكن أن تؤكل . ولكن إذا ما أزلت هذا الغلاف بقطع دائرى من السكين وجدت فى داخله نواة فى حجم بيض الدجاج . لونها أبيض شفاف ، ويسيل منها شراب بارد منعش عندما تقضم فيها بأسنانك . و« المانجوستين » قشرته الخارجية رقيقة جافة بنية اللون . وانما نكهة طعمها مزيج من القشطة والمانجو . لونها أبيض ولكنها مقسمة إلى فصوص . و« اليوسفى » جلده الخارجى رفيع مثل الورق . وفصوصه الداخلية لونها البرتقالى عميق . عندما تنكشف أمامك تبهرك . وتشعر أنك تريد أن تحتفظ بها وتتأملها طويلا قبل أن تضعها فى فمك . فإذا ما أكلتها تذوب وكأنها مجرد سائل متجمد . خال من الألياف والأنسجة والبذور . و« الأناناس » الضخم . كتلة من اللحم المتماسك تسيل منه كميات من الشراب . تختلط فيه الحلاوة بالمرارة التى لا تكاد تشعر بوجودها . يبيعون لك الثمرة بأكملها أو قطعاً يصنعون منها أشكالا هندسية مختلفة «والبابايا» تشبه الشمام . ولكنها مستطيلة . ذات حجم أصغر . ولونها من الداخل أحمر فاتح ، والبطيخ ، والبرتقال . و« الدوريان » يقولون عنه إنه يحول الجسم إلى كتلة مشتعلة إذا تناولت معه مشروباً مسكراً . وعشرات من الفواكه الأخرى التى لم أعد أتذكر اسمها ولا تفاصيلها . أكوام فوق أكوام . فوق أكوام تتخلل المساحة الضخمة من أولها إلى آخرها . وأنواع

تايلاند : فاكهة « البابايا » كالشمام ولكنها حمراء اللون
وتنمو فوق الشجر.

الخضراوات التي يستحيل أن تحصر عددها أو ألوانها الزاهية . والأسماك الصغيرة ، والكبيرة ، الرمادية . والسوداء . والملونة : النيئة والمملحة . والمشوية ، والمطبوخة في الأواني أو على البخار في قطع كبيرة أو صغيرة . جافة أو غارقة في البهارات والصلصة التي تحرق اللسان بمجرد اللمس . وأنواع اللحم المذبوح . والقديد : المعلقة في السقف في شرائح ضخمة . أو المرصوصة على الصواني في قطع صغيرة . أو في أسياخ من الحديد والبوص المذبب فوق النار . أو في شكل كرات مستديرة كالكفتة . والحلويات المسكرة ، وغير المسكرة ذات المائة لون والمائة طعم . والفواكه المملحة والمخللات .

وسط كل هذا أقفاص من مختلف الأحجام . والأشكال . وضعت فيها القطط ، والكلاب ، والأرانب ، والدجاج . والعصافير وأحواض من الزجاج تسبح داخلها أسماك الزينة الملونة .

قلت لصديقي السائق :

« كيف لا يتوه الناس بين كل هذه الأشياء ؟ »

لمعت أسنانه البيضاء في الوجه الأسمر :

« لكل منطقة من البلاد طعامها . والناس يحضرون إلى سوق الأحد بسلعهم من كل المناطق . هيا نبتاع بعض الفواكه » .

ملأنا أكياساً من الورق بالموز والرامبوتان والمانجوستين والأناناس واليوسفي . هممت بدفع الحساب ولكنه خاطب الفتاة النحيلة الجالسة على الأرض فأبت بإصرار أن تأخذ مني شيئاً . مد يده إلى جيبه وأخرج منها ورقة من فئة الخمسين « باطاً » أعادت إليه الباقي ثم قال :

« إلى أين ؟ »

قلت :

« إلى النهر » .

obeikandi.com

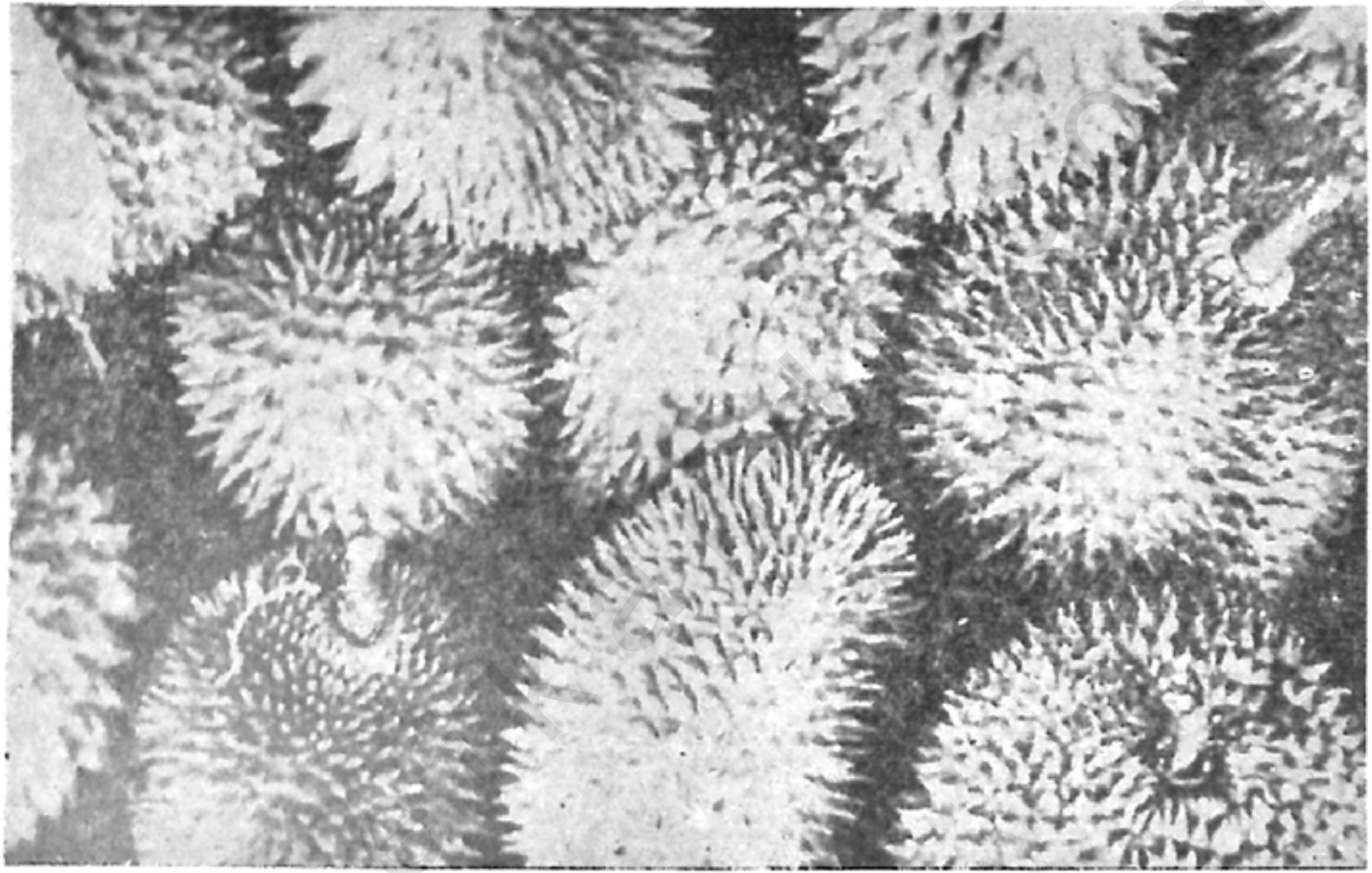

فاكهة الدوران : تجعل الجسم يشتعل إذا ما أكلتها وشربت معها شرابا كحوليا

سرنا بخطوات بطيئة عبر الميدان حيث تقف السيارة .

قال :

أتريد أن تأكل بعض الفاكهة ؟ .

قلت :

لا . ليس الآن . .

وضع الأكياس فى الحقيبة الخلفية ومعها آلة التصوير .

سألته :

. لماذا لا تترك الأشياء على المقعد الخلفى ؟ .

قال :

. الناس هنا فقراء وأبواب السيارة لا تغلق جيداً . .

دارت بنا السيارة حول الميدان . ألقيت نظرة أخيرة على الكتلة البشرية المتزاحمة . تبدو وكأنها لا تريد أن تتفرق « إنهم يأتون من كل المناطق » . الطبيعة هنا سخية . خصبة . تعطى الكثير . كم هو جميل ذلك التنوع فى الحياة . تذكرت « السوبر ماركت » فى شارع سيلوم . كل شىء نظيف صحى منظم . مغلف فى أكياس من النيلون . . . موحد . مسعر . أشياء مفيدة . . . فمن يستطيع أن يعترض عليها ؟ لا وقت للنقاش . أو الحديث . أو التسكع . أو الفرجة . العجلة ينبغى أن تدور . والأشياء ينبغى أن تتوحد . فالآلة هى القوانين والإنتاج الواسع يلغى التنوع . ويحدد المقاييس . والزمن . نعطان من الحياة ولكن أيهما أنضج ؟ سؤال يعترضنا فى كل خطوة . هل يمكن أن نلحق بعيرنا بدون أن نفقد مزايا التخلف ؟ هل يمكن أن يكسب الإنسان فى سباق التقدم بدون أن يفقد نفسه فى السباق ؟ هل يمكن أن ندرك قيمة الزمن بدون أن نفقد الاستمتاع به ؟ أسئلة تبحث عن إجابة هنا . وأين الجواب ؟ . . فى الشرق أم فى الغرب ؟ أم فى الاثنين معاً ؟ !

الناس يدفعون الثمن !

سألت السائق :

« أمتزوج أنت ؟ »

قال : « نعم . وعندى أربعة من الأولاد »

« أين هم . فى المدرسة ؟ »

« الكبير يعمل ميكانيكى سيارات . والثلاثة الآخرون . صبى وبنتان . فى المدرسة .

ابنى الكبير كان يريد أن يذهب إلى الجامعة ولكنه لم يستطع » .

« لماذا ؟ »

« الجامعة هنا لأولاد الأغنياء . فالمصاريف السنوية تصل إلى ٣٠,٠٠٠ باط (١٥٠٠ دولار) . منها ١٠,٠٠٠ باط (٥٠٠ دولار) تدفع مقدماً » .

« والمدارس ؟ »

« لأولاد الأغنياء أيضاً »

« ماذا تفعل إذن ؟ »

« أصرف عليهم نصف دخلى . عندما قامت حرب كوريا أعلنت الحكومة أن من يتطوع للحرب هناك ضد كوريا الشمالية ستتولى تعليم أولاده بالمجان . فتطوعت . ولكن عندما عدت إلى الوطن توقفوا عن دفع هذه المعونة . لم يكن لدى سوى طفل واحد آنذاك . فاستطعت أن أتحمل مصاريفه . ولكن الحمل الآن أصبح ثقيلا » .

« كيف تتصرف إذن ؟ »

ابتسم ابتسامة غامضة وقال :

« مدينة بانجكوك مدينة كبيرة . أتعلم أن بها ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة الآن ؟ مدينة يلهو فيها الأغنياء ، والأمريكان ، وسبل العيش كثيرة » .

تنطق الكلمات الأخيرة بمرارة .

ومن أين يأتى الأمريكان ؟

« من القواعد العسكرية . البلاد مغطاة بالقواعد العسكرية » .

« ممن تخافون ؟ »

« أتسألنى أنا؟ لاشىء . لاشىء يخيفنى . ولكن الجرائد تقول للناس إنه لا بد من أن نوقف الغزو الشيوعى فى فيتنام . وإلا احتلنا الشيوعيون . ولذلك لا بد من القواعد . ولا بد من الطائرات . والمدافع . والجيوش . ولا بد من الضرائب لدفع الثمن .

ألم تر بنفسك تكاليف الغذاء فى بانجكوك ؟ »

« ولكننى رأيت غنى فاحشاً أيضاً » .

« هذه بانجكوك . الفنادق . والمطاعم . والجواهر ، والحرائر . وأماكن اللهو . وعلى الأطراف الجموع الزاحفة من الريف . بالآلاف يسكنون مدن الصفيح » .

تلفت إلىّ كأنه يريد أن يرى أثر كلماته . هززت رأسى .

وساد الصمت لحظات كأن كلاًّ منا غارق فى التفكير . ثم سألنى :

« وأنتم ماذا تفعلون ؟ »

قلت :

« عندنا مشكلة إسرائيل . هل سمعت عنها ؟ »

« نعم . يقولون إن العرب يريدون افتراسها » .

« من يقول هذا ؟ »

« الصحف والإذاعات » .

« وما رأيك ؟ »

« لا أعرف . إننا لا نسمع وجهة نظركم » .

إسرائيل هى التى اعتدت علينا فى ١٩٥٦ . ١٩٦٧ وهى تحتل أراضينا الآن . .

« قالوا إنكم كنتم البادئين » .

« لم يحدث . إسرائيل عندنا مثل القواعد العسكرية عندكم . سهم مصوب إلينا . إلى شعوب المنطقة .

قنوات الحياة :

توقفت السيارة فجأة . نظرت أمامى . النهر العريض يتدفق فى عنفوان متمرد . تحس فيه أنه متوحش . طليق . لم تمتد إليه يد إنسان لتتحكم فى مساره بالأبواب . والسدود . والقنوات . مياهه الحمراء تتموج تحت لسعات الريح . وعلى الجانبين تلك الخضرة الداكنة العميقة التى تتميز بها هذه المناطق . وتلك الأشجار والأحراش الكثيفة . التى تغطى كل شبر من الأرض . وترتفع فى السماء حاملة ثمار جوز الهند . والموز . والأناناس . تتمايل مع الريح . وتصنع شريطين من الخضار ينحصر بينهما النهر الأحمر .

نزلت من السيارة . وأغلق السائق الباب وتقدم إلى جوارى . ملأت رئتى بأنفاس عميقة وقلت :

« النهر جميل » .

قال :

« هيا بنا » .

سرنا فوق الرصيف بجوار حاجز من الحديد أقيم على امتداد هذا الجزء من النهر . هنا الحركة أبطأ . والشوارع أقل زحاماً . وعربات الباعة الجائلين الملونة منتشرة فى كل مكان . تحس أنك فى مدينة صغيرة أو فى ضاحية . الناس يروحون ويجيئون وهم يحملون الأشياء التى ابتاعوها

من السوق أو من الخونيت . توجهنا إلى مبنى خشبي عبارة عن سقف ، وعدد كبير من المقاعد . يجلس عليها الناس ينتظرون . لبناء يقود إلى سلم متعرج ينحدر إلى أسفل . وفوق المياه المحيطة . بالمعدية كانت تقف عشرات الزوارق الصويلة الرفيعة تتأرجح فوق أمواج النهر في خفة مثل قطع من الفلين .

لوح السائق إلى أحد المراكبية . كان يقف منتصباً في زورقه ، يتطلع إلى أعلى باحثاً عن الركاب . وجه أسمر مستدير لفحته الشمس ، وعينان تلمعان كقطع الفحم الأسود ، وجسد قوي ممتلئ يحيط به سروال ضيق . وقميص أبيض مطرز بألوان زاهية .

سمعت بضع كلمات كالطلقات المتبادلة . ومن بينها كلمة « باط » تحت ابتسامة المراكبي البيضاء وذراعه القوية تدعوني إلى النزول.

قال السائق :

. سنذهب معه في رحلة لمدة ساعتين . وسندفع له ٢٥ باطاً » .

أومأت برأسي موافقاً . الرصيف تحيط به حركة دائبة من الزوارق ، تنطلق مسرعة عبر النهر . وهي تحمل صفاً طويلا من الناس ، يجلسون على المقاعد في خط مستقيم حتى لا تنقلب ، أو أكواماً من الخضراوات والفواكه .

جلست مولياً وجهي إلى الأمام . أخذ السائق مكانه خلفي ، واستقر المراكبي الشاب عند مؤخرة الزورق . يسند نفسه على الدفة بجوار المحرك .

انطلق صوت الموتور كالرعد ، وانساب الزورق فوق المياه الحمراء . ثم انطلق بسرعة متزايدة ترتفع مقدمته المدببة في الهواء . وعلى الجانبين جدار عال من الرذاذ الأبيض ، تسقط قطراته المنعشة على وجوهنا وأجسامنا. رأيت غابة الأشجار والأحراش الخضراء على الضفاف الأخرى تقترب منا بسرعة ، وبيوتاً من خشب « التيك » السميك البني اللون مرفوعة

فوق الأعمدة العالية ، كالسيقان العملاقة ، أقدامها غارقة فى المياه . أحسست بالزورق يبطئ ، ثم انحنى فجأة ليندفع عبر فجوة مفتوحة بين صفين من البيوت الخشبية . هدأ النبض المنتظم ، وانزلق هادئاً فوق مياه قناة ضيقة متعرجة ، تنفذ إلى أعماق الغابة .

البيوت الخشبية تمتد فى صفين متصلين على الجانبين . السلالم تنحدر من الباب الأمامى حتى المياه وحول كل بيت حديقة صغيرة تتدرج إلى حافة القناة ، ويتوسطها ممر ضيق من الطين يقود إلى فجوة طويلة يبيت فيها زورق فارع الطول ، كالسيارة فى جراج البيت ، فالقنوات هنا هى الشوارع ، والزوارق هى وسيلة الانتقال الوحيدة لكل أسرة .

النساء يطللن من النوافذ ، أو تراهن داخل الحجر ، يعددن الطعام أو يحكن الملابس ، أو يستغرقن فى الحديث ، أو يغسلن القمصان الملونة بالصابون فى مياه القناة ، أو يغتسلن . والرجال القليلون تبدو أجسامهم قوية مفتولة العضلات ، يزرعون فى الحديقة ، أو يصلحون زوارقهم ، أو يستحمون تحت أعمدة البيوت ، وكلهم لا يرتدون إلا السروال القصير ، وبقية أجسامهم عارية . فالحرارة خانقة رطبة ، ويصعب تحملها ، برغم سقف الأشجار الكثيفة التى تحمى من الشمس وتخفى السماء بأوراقها وفروعها المتشابكة . والأطفال يمرحون بأقدامهم فى الطين ، ويجرون هنا وهناك ، تسمع أصوات ضحكاتهم ، وبكائهم ، وأجسامهم وهى ترتمى فى المياه . تحس وأنت تسير بالطبيعة ، وبالحرية ، وبأن الاختلاط جزء عادى من الحياة اليومية :

قلت للسائق :

« تبدو صحتهم جيدة ، وبيوتهم نظيفة » .

قال :

« نعم ، ظروفهم أحسن من غيرهم » .

« لماذا ؟ »

obeikandl.com

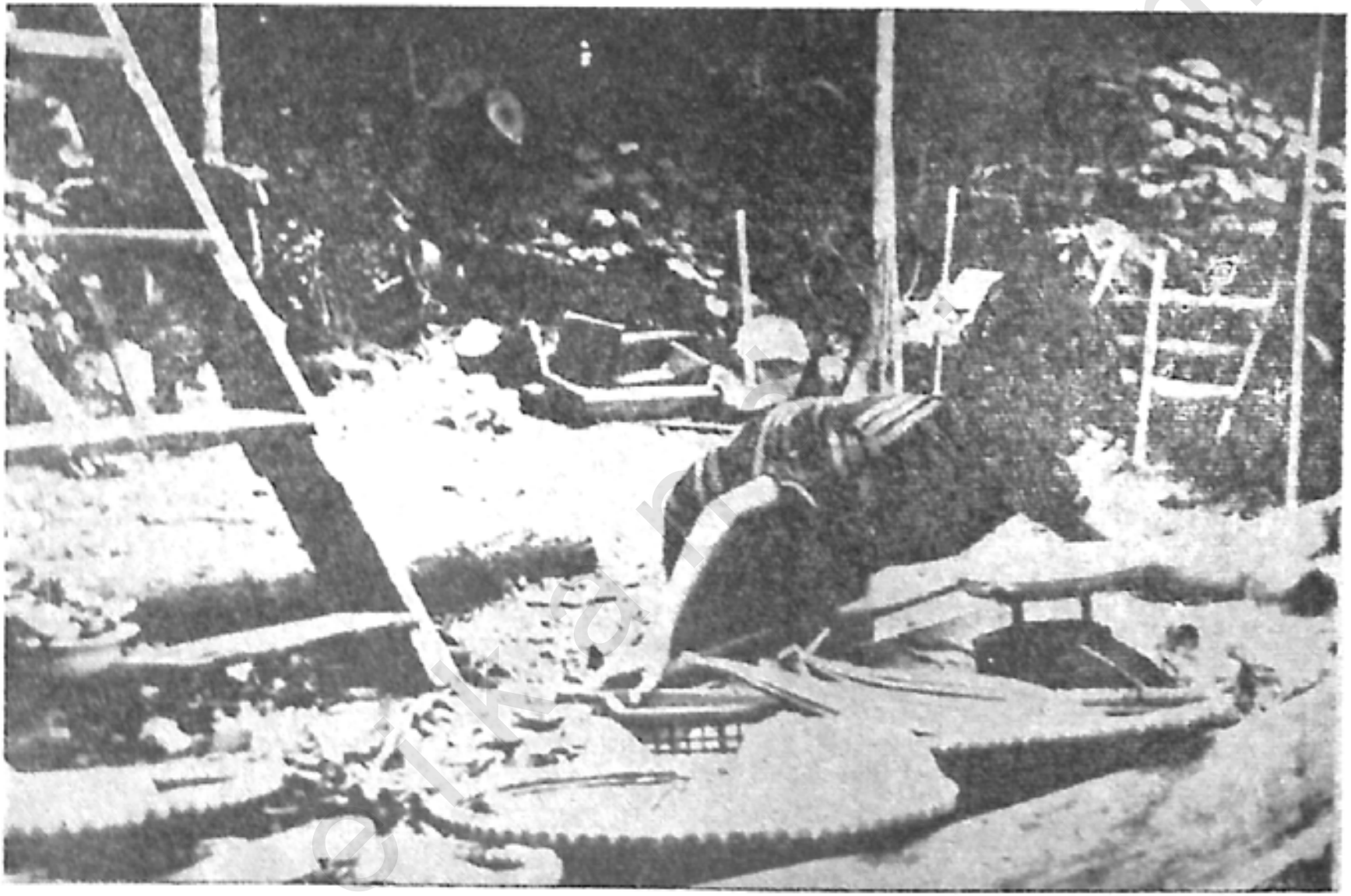

بانجكوك : بائع الخضراوات على الزورق

« هنا منطقة زراعة الفواكه والخضراوات . وهى قريبة من بانجكوك . يحملون إليها منتجاتهم طوال الأسبوع وبالذات يوم الأحد . فتجد النهر وقد غطته مئات الزوارق . هذا هو السوق العائم » .

« ولكن هذه القنوات . ألا تحمل الأمراض ؟ لم أر صنابير للمياه أو أسلاكاً للكهرباء » .

« لاتوجد مياه نقية ولا كهرباء . والبعوض منتشر يحمل معه الحمى » .

« الملاريا ؟ »

« نعم . هى هذه . تحصد بالمئات أحياناً » .

« والأطفال هل يعملون ؟ »

« أغلبهم يعملون . وقلة تذهب إلى المدارس » .

« وهل ينجب الناس أطفالا كثيرين ؟ »

« نعم » .

« مثل أجدادهم ؟ »

هرش رأسه كأنه يفكر .

« لا . . . أقل » .

« لماذا ؟ »

« لا أعرف » .

كل شىء هنا يتم فوق سطح القناة . الحلاق يقود زورقه من بيت إلى بيت . ومن زبون إلى زبون . وبائع الحساء يضع وعاء فوق موقد يعمل بالمازوت ويصب السائل الأصفر الساخن بمغرفة ضخمة فى الأطباق المسدودة عبر النوافذ ، أو عند أسفل السلم . والميكانيكى يتجول بزورقه عبر القناة يقف هنا أو هناك ليصلح محركاً أصابه عطب . والنساء يتزاورن . أو يذهبن إلى السوق ، يدفعن زوارقهن بالمقذاف أو الموتور ، ويحركن الدفة فى حذق بالغ . حتى الأطفال يجيدون التنقل فى الزوارق الصغيرة الرشيقة .

قلت لصديقي السائق :
« والمناطق الفقيرة أين هي ؟ »
« في الريف " الجواني " حيث يزرعون الأرز » .
« وهل تعرفها ؟ »
« نعم » .
« كيف وأنت ابن المدينة ؟ »
« جئت أصلا من هناك . ولي أقارب ما زالوا يعيشون على زراعة الأرز » .
« هل يمكن أن نذهب إليهم ؟ »
« نعم » .
« متى ؟ »
« بعد الظهر » .

الأرز المرّ

سرنا على الطريق الضيق الترابي بين الحقول . والشمس تنحدر بالتدرج في السماء . وعلى الطريق كانت تتحرك جماعات صغيرة متفرقة من الفلاحين . حركة بطيئة فيها إعياء ، تشعر أنها بغير هدف . كأنهم يقتلون الساعات الباقية من النهار . شيء ما في الجو يشعرك بأن الحياة تتوقف . تنتهي . ربما الصمت ، أو الأجساد الشاحبة المتهالكة ، أو البيوت الخشبية الخربة تغرس سيقاناً رفيعة في المياه الآسنة ، أو الناس يقفون على أطراف الحقول يحملقون في الأفق بحثاً عن شيء مفقود ، أو الأذرع والأيدي التي لا تتحرك ساكناً ، وكأنها تعودت البطالة منذ زمن بعيد .

وقفت أتأمل المساحات الممتدة أمامي ، مساحات الأعواد الجافة ، المستسلمة ، الساكنة . يتحول لونها بالتدرج من الأخضر الشاحب ،

تايلاند: زارعات الأرز ... المر

إلى الأصفر إلى لون يشبه حطب القطن. وكأن الحياة تذوى فيها بالتدريج. ومساحات أخرى عارية تكشف عن أرض حمراء اللون يغطيها شيء كالريم الأبيض.

« ما هذا يا أحمد ؟ »

« الأرز ».

« الأرز؟ أين الأرز؟ الأرز في بلادنا كالبساط الأخضر».

تلفت إليه. كان يقف كالتمثال ينظر إلى شيء.

« هذا هو الأرز عندما تنقطع الأمطار ».

« وما هو موسم الأمطار » ؟

« نحن فى موسم الأمطار الآن. هل رأيت مطراً ؟ »

« لا، ولا قطرة »:

« لم نر قطرة مطر طوال يوليو وأغسطس ».

« ألا يوجد نظام للرى سوى المطر؟ »

« لا ».

« وعندما ينقطع المطر ماذا تفعلون ؟ »

« تجف الحقول، ويجوع الناس. فالأرز هو المحصول الوحيد فى أغلب المناطق ».

« ولماذا لا تعمل مشاريع للرى ؟ هذا النهر العريض المتدفق الذى رأيته: مافائدته ؟ » صمت لحظة كأنه يبحث عن الإجابة.

« يقولون إنه لاتوجد أموال لذلك ».

فى السكون سمعت صوت طفل صغير ينادى. لمحت جسداً صغيراً على ساقين كعودين من الكبريت، وأسناناً تبرز فى ابتسامة مفزعة والوجه عظام تحت الجلد.

لوحت الأم الشابة نحو الطفل وأطلت من عينيها نظرة هادئة تضيء الملامح الرقيقة. كانت تحمل فى يديها طبقاً من سائل أبيض اللون وملعقة

صغيرة . اقترب منها الطفل وأخذت تطعمه بالمعلقة . متجهة ناحيتنا بنظرة متسائلة بين الحين والآخر .

قالت :

- ماالذى تعطيه الطفل ؟

- حساء الأرز - أرز مسحوق فى قليل من الماء .

- فقط ؟ .

« فقط » .

أحسست برغبة شديدة فى أن أبتعد عن هذا المكان . أخذت أمشى بخطوات مسرعة ناحية الطريق العام حيث كانت تقف السيارة .

سمعته يلهث ورائى .

« لماذا تجرى هكذا ؟ » .

« الوقت متأخر ، وأمامنا أشياء أخرى أريد أن أراها » .

« هل تزور أقاربى ؟ إنهم على بعد عشرة كيلومترات من هنا » .

« لا » .

« لماذا ؟ سيرحبون بك » .

« أليسوا من زراع الأرز ؟ » .

« نعم » .

« هيا بنا نذهب إلى مكان آخر » .

تيملاند

جلسنا على المقعد الخشبى وقد انتابنى إرهاق شديد . الجزء الأخير من جولتنا أدخل على شعوراً عميقاً بالملل . كنت أتوقع أن يحدث ما حدث ، فقد أدركت منذ أول وهلة أن « تيملاند » هذه مصنوعة للسياح ؛ ولكن درجة الملل فاقت ما كنت أتوقعه . حديقة مترامية الأطراف لا يميزها جمال الزهور . أو براعة التنسيق ، أو أى شىء ؛ ومجموعة متنافرة من المشاهد والألعاب : والرقصات يؤديها طلبة وطالبات المدرسة

المنشأة خصيصاً لهذا العرض . في العرض السياحي الذي من أجله أنشئت حديقة تيملاند .

رأينا تجمع صغير من الرجال بملابس الفلاحين . غطسوا بأقدامهم وسيقانهم في بركة من المياه وهم يقلدون حركة شتل الأرز . ويدفعون زوجاً من الجاموس يلمع جلدهما الأسود فوق الوحل المكثف . وهما تروحان وتجيئان في حركة بطيئة متكررة لا معنى لها . ورأينا الفتيات يرقصن على أنغام الموسيقى البطيئة . وقد اختفت ملامحهن الدقيقة الجميلة خلف طبقات من الأصباغ حولت الوجوه إلى أقنعة . وتابعنا ديكين مباقتين يتعاركان دون حماس . وكأنهما يدركان هما أيضاً أنها مجرد تمثيلية . ورأينا مباراة للكرة تستخدم فيها الأيدي والرءوس والأقدام لإدخال الكرة في سلة رفعت عالية فوق رءوس اللاعبين . وشاهدنا مباريات بالسيوف والرماح والعصي . شارك فيها الشبان والفتيات بعنف ومهارة . تخطف الأنفاس خوفاً من أن يصاب منهم أحد . ومع ذلك نحس أن كل حركة محسوبة . مدروسة بدقة . وتبعنا مباراة في الملاكمة يستخدم فيها الخصمان قبضات أيديهما وضربات أقدامهما في أي موضع من الجسم مهما كان خطراً . وأخيراً عرضوا علينا فيلا ضخماً يحمل ألواحاً من الخشب « التيك » الثقيل ليلقي بها في بركة من المياه تتحرك فيها ثعابين سوداء : يصل طولها إلى عدة أمتار .

برغم ضحالة العرض كانت الحديقة مزدحمة بأفواج من الزوار . أغلبهم سياح أمريكان أو إنجليز أو فرنسيون يتابعون كل ما يحدث باهتمام وحماس .

ترى لماذا لم أستمتع بهذه المناظر ؟ رفعت ثمرة جوز الهند إلى فمي وتركت السائل الشفاف المنعش يتدفق بغزارة إلى حلقي . الثمرة كبيرة بنية اللون ، تغطيها ألياف من الشعر الخشن من الخارج : بيضاء كاللبن من الداخل . قال لي صديقي :

ما رأيك ؟

قالت :

« ألعابكم عنيفة » .

« شعب لو الناى تكون من قبائل محاربة . وتاريخ بلادنا هو تاريخ الحروب بين الأمراء والسلاطين . والشاب عندنا يتدرب على المبارزة بالسيوف والرماح . وعلى استخدام العصى وعلى المصارعة والملاكمة منذ نعومة أظافره » .

« أجسادهم كالمطاط قوية . وسريعة . ولكن هل تشارك الفتاة فى القرية أيضاً ؟ » .

« إلى درجة أقل . ولكنها تشارك فى الرقص وفى اللعب » .

عدنا إلى السيارة . أشعلت سيجارة وتركت نفسى تسبح فى حالة بين اليقظة والنوم . الأشياء تحلق بعيدة عند أطراف الوعى . مررنا أمام مبنى كبير منخفض لونه أحمر وتحيط به حديقة واسعة . رأيت أفواجاً من الناس يخرجون من الباب الرئيسى . شباناً وشابات يحملون كتباً . ومجلات . وأطفالا من المدارس ، وأسراً بأكملها أغلبها يبدو عليها رقة الحال .

سمعت صديقى يقول :

« هذا هو المتحف » .

« وكل هؤلاء الناس ؟ » .

« زوار . كل يوم أحد يحضرون بالآلاف » .

مررنا بشارع طويل — على جانبيه صفوف من الحوانيت الصغيرة . تطلعت من النافذة إلى تجمعات من الناس تقف أمام آلاف السلع المتنوعة ، كميات لا نهاية لها من كل ما يمكن أن يخطر على بال .

قال مرافقى :

« سوق اللصوص » .

« سوق اللصوص ؟ » .

نعم نسميه هكذا . هنا تباع كل الأشياء والبضائع المسروقة .

والبوليس ؟

ينظم العملية . ولا يتدخل إلا لفض المشاكل .

بأى غرض ؟

. تجارة المسروقات لها شعب . ولكل شعبة رئيس من الأغنياء . والأغنياء لهم نفوذ . ولهم أعوانهم . وهم يدفعون بسخاء . من عنده نقود يشترى كل شيء حتى الناس . أيدهشك هذا ؟

بداية المهمة

استيقظت فى الصباح الباكر . كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة . السفر يولد طاقة جديدة فى العقل والجسم . وقدرة على تحمل التنقل المستمر . والجهد المتواصل . لو كان أمام الإنسان وسيلة لتجديد الحياة . وتغيير العمل قبل أن يصبح روتينياً عادياً لما نضبت ينابيع الطاقة .

جلست فى المطعم الصغير أشرب قدحاً من القهوة باللبن الصناعى . فى بانجكوك يصعب الحصول على اللبن الطبيعى . الثروة الحيوانية ليست لها وجود تقريباً . ونادراً ما ترى أبقاراً وجاموساً فى الحقول . لم يكن فى المحل أحد سواى . تعودت أن أتناول وجباتى هنا . كل شيء يلمع ببريق النظافة . الموائد البيضاء . والمقاعد المعدنية . والجدران المغسولة والأطباق حتى وجوه الثلاث فتيات وعيونهن . والشاب . الذين يديرون شئون المطعم . ويروحون ويجيئون بأقدامهم العارية فوق البلاط .

خرجت إلى الشارع ، وسرت متمهلا . فما زال أمامى ساعة من الزمن . أفواج من الناس يسرعون إلى العمل . وعلى الأرصفة تجلس جماعات صغيرة من الشباب والشابات فى دوائر يتناولون طعام الإفطار ، ويتبادلون الأحاديث الضاحكة . شيء ما فى جلستهم على الأرض ، يشعرك بالانسياب الطبيعى للحياة بدون عقد . إلى جوار إحدى المجموعات جلست امرأة

تتبادل معهم الحديث . وتسقط قطع صغيرة من الموز فى إناء مسطح تغلى فيه طبقة رفيعة من الزيت . كانت تنتظر حتى تتحول شرائح الموز إلى اللون الذهبى . ثم تنقلها إلى مصفاة كبيرة ما تكاد تمتلئ حتى تفرغ من محتوياتها لتبتلعها أفواه الشباب على الأرض . والسائرون بسرعة فوق الأرصفة .

أقحمت نفسى بين الأجساد فى المصعد . وصعدنا إلى الدور الثامن : المبنى حديث تكثر فيه الأبواب الخشبية . والمعادن اللامعة . والزجاج . ومربعات القيشانى الملونة . والرخام . كانت الساعة تدق الثامنة والنصف عندما اجتزت الباب الخارجى . تحت اللوحة النحاسية « المكتب الإقليمى هيئة العمل الدولية » .

استقبلتنى سيدة تايلاندية صغيرة القوام . وبعد أن اطمأنت على ترتيبات الإقامة وعلى تفاصيل برنامج الرحلة فوجئت بها تقول :

« وصلتنا البرقية التى تحدد ميعاد وصولك متأخرة . ولذلك لم نتمكن من عمل الترتيبات اللازمة لزيارة برنامج تنظيم الأسرة هنا فى تايلاند . وفى سنغافورة . أما مؤتمر كوالالامبور . وزيارة الهند وباكستان فإن أمامنا فرصة كافية لترتيب كل شىء » .

أحسست بالضيق يعلو فى صدرى . سكتت لحظة حتى أهدأ ثم سألتها :

« ياسيدتى . لماذا جئت كل هذه المسافة إذن ؟ »

هزت كتفيها وقالت :

« ماذا نفعل ؟ وصلتنا البرقية متأخرة واتصلت بالهيئات المسئولة عن تنظيم الأسرة هنا . وفى سنغافورة . فقالوا إن الوقت المتاح لايكفى لترتيب البرنامج المطلوب » .

فكرت قليلا . أمامى عشرة أيام ولم أكن مستعدا لتضييع هذه الفرصة .

« لى اقتراح . أرجو أن تتصلى بالمسئول عن تنظيم الأسرة هنا

obeikandi.com

وأن تبلغيه أنني سأمر به في المكتب ، بعد ساعة مثلا . وأرجو أيضاً أن ترتبي سيارة لتوصيلي إلى هناك . هل هذا ممكن ؟

- أعتقد أنه لا صعوبة في ذلك .

- أشكرك . وأستأذنك في أن أبقى هنا حتى تقومي بالاتصالات اللازمة .

تفرست في وجهها . لم يبد عليها أي شيء ينم عن الرضى أو الضيق . لم أكن قد تعودت بعد هذه الوجوه التي يصعب معرفة ما يدور تحتها . ولكنني أدركت فيما بعد أن الناس في تايلاند لا يظهرون بسهولة ما يشعرون به . فالأعماق تبقى مدفونة بعيداً عن السطح . والسطح يقف كجدار من الجليد نادراً ما تنجح في إذابته .

قامت وخرجت من الحجرة . وعادت بعد قليل وقالت بالصوت الهادئ نفسه ، بالنظرة المسطحة الخالية من أي انفعال :

- مدير المشروع السيد " ويليت " ينتظرك الساعة العاشرة . وسائق السيارة سيحضر هنا بعد نصف ساعة ليصطحبك إلى مقر تنظيم الأسرة . المسافة من هنا إلى هناك تستغرق ثلاثة أرباع الساعة .

- شكرا . هذه أول خطوة . والآن بالنسبة إلى زيارة سنغافورة . أقترح إرسال برقية أخرى إلى المسئولين بميعاد وصولي . وإعداد رسالة ثم أحملها معي حتى يطمئنوا إلى صفتي الرسمية . وسأقوم أنا بالاتفاق معهم على البرنامج بعد وصولي .

- سأعرض فكرة الرسالة على المدير . أما البرقية . فليس لدينا مكتب هناك وبالتالي لا نستطيع أن نخاطبهم مباشرة . لا بد أن نرسل أولا إلى فرع صندوق تنمية المشروعات السكانية لهيئة الأمم المتحدة في كوالا لامبور ليتولوا الاتصال بهم . وستكون أنت في سنغافورة قبل أن تنتهي هذه الإجراءات .

- إذن لا داعي لبرقية . أرجو أن تعدوا الخطاب الذي سأحمله معي وسأمر باكراً لتسلمه . هل يمكنكم القيام بحجز مكان على الطائرة ، وحجرة

obeikandl.com

فى أحد الفنادق فى سنغافورة ؟ .

« هذا ممكن . لدينا مكتب خاص بترتيبات السفر . سأتصل بالآنسة المسئولة ويمكنك أن تمر بها بعد أن تتغدى من هنا . هل أعددت ورقة بالبرنامج الكامل ومواعيد السفر ؟

« نعم ها هى ذى . مددت يدى بالورقة .

« حسناً . سأعمل الترتيبات اللازمة مع مكتب السفر فيما يتعلق بالطائرات . والفنادق . وسأرسل البرقيات حتى ينتظرك أحد فى كل مطار . أظن أنها أول مرة تذهب فيها إلى هذه البلاد ؟ .

أحسست بشعور من الود ينمو فى داخلى فابتسمت ناحيتها وقلت :

« نعم أول مرة فعلا » .

حملقت فى وجهى بنفس النظرة الجامدة فقمت من جلستى وقلت :

« سأمر باكراً لأخذ الرسالة وتذاكر السفر . أشكرك » .

ثم فتحت الباب وخرجت .

الناس والموارد

السيارات تسرح عبر الشوارع . وجهاز التكييف ينفث هواء بارداً منعشاً فى الجو الحار . عندما همست بالركوب فتح لى السائق الباب الخلفى . ولكننى أشرت إلى الباب الأمامى وجلست إلى جواره . بدت عليه لحظة اندهاش خفيفة سرعان ما عاد وجهه بعدها إلى الجمود المعتاد . نظرت بطرف عينى إلى ملامحه السمراء . شىء ما فيها لا يشجع على الحديث . آثرت الصمت وتأمل الشوارع والناس من النافذة .

المستر « وينيت » رجل مستدير الوجه . أبيض اللون . جسمه المكتنز يقبع فى هدوء خلف المكتب الكبير المغطى بالأوراق والكتب والملفات . شرحت له كيف أننى تكبدت مشقة السفر مسافة ستة آلاف كيلو متر لزيارة المشروع الذى يتولى مسئوليته . فبدت عليه بعض علامات التجاوب . رفع سماعة التليفون العاجى وهمس ببضع كلمات سريعة حادة ثم أعادها

إلى مكانها وقال :

اليوم ستستمع في شرح مسجل لبرنامج تنظيم الأسرة ومعه بعض الشرائح الإيضاحية . وبعد ذلك ستقابل مديري الإدارات وتجري معهم مناقشة حول عملنا . وابتداء من باكر سنرتب لك بعض الزيارات للمستشفيات والوحدات المختلفة .

سمعت قرعاً خفيفاً على الباب . دخلت فتاة متوسطة الطول ووقفت صامتة كأنها تنتظر الأوامر . قال :

الآنسة " سون " سترافقك في أثناء زياراتك .

نظرت ناحيتها وأومأت برأسي محيياً .

ردت التحية بانحناءة خفيفة . قمت من جلستي . شددت على يده الممدودة . وقفت الفتاة تنتظرني فأشرت لها بأن تتقدمني . فتحت الباب وتبعتها عبر الممر الطويل الضيق . وعلى الدرجات . تنحدر إلى أسفل في دوائر حلزونية . وصلنا إلى حجرة فسيحة بها آلة سينما وشاشة بيضاء ، وملصقات ملونة على الجدران وموائد هندسية للرسم وآلات تسجيل . سحبت أحد المقاعد الجلدية ووضعته وسط الحجرة . أشارت إلى بالجلوس ثم قالت :

« أتريد شاياً مثلجاً أم قهوة مثلجة ؟ » .

تقابلت عيوننا لأول مرة وفجأة أضاءت وجهها ابتسامة دافئة مريحة جاءت ثم ذهبت بسرعة كالشمس في يوم ممطر .

قلت :

« قهوة مثلجة لو سمحت » .

صوت وصورة

الشريط المسجل يحدثني بصوته الآلي عن برنامج تنظيم الأسرة في تايلاند ، والفانوس السحري يلقي بالرسومات البيانية والأرقام على الشاشة

obeikandi.com

البيضاء . أوسائل عصرية دقيقة موحدة المضمون والخط . ولكننى أحسست وأنا جالس وحدى فى الظلام . أنها لا يمكن أن تكمل الإنسان ، وأن تساعده . ولكنها لا يمكن أن تكون بديلا عنه .

توقف أزيز الأجهزة فجأة . خطرت لى فكرة غريبة . ماذا لو نسوا وجودى وتركونى هكذا فى الحجرة المظلمة المغلقة تحت الأرض ؟ ولكن لم يكد هذا الخاطر يمر بذهنى حتى أضيئت الأنوار ودخلت الآنسة سون تمشى بخطوات صامتة لينة عبر الحجرة الفسيحة .

« أرجو أن تكون قد استفدت من التسجيل »

« شكراً . أخذت فكرة عامة عما كنت أريد »

« هل تعبت ؟ »

« لا بالعكس تفتحت رغبتى لمعرفة المزيد » .

« هيا بنا . أعددت لك لقاء مع مساعد المدير ورؤساء الإدارات المختلفة فى المشروع » .

انتقلنا مرة أخرى عبر ممر طويل ضيق ودخلنا حجرة فسيحة ، كان ثلاثة من الرجال يجلسون فيها على مائدة للاجتماعات . وقفوا وسلموا على ثم دعونى إلى الجلوس معهم .

مرة أخرى وجدت أمامى القهوة المثلجة المنعشة ولكن هذه المرة كانت الأكواب أكبر حجماً مصنوعة من الزجاج السميك وفا يد كتلك المستعملة فى شوب البيرة .

هتف صوت فى داخلى « لكل مستوى أكوابه » . ذكرتنى بمصر . « أقداح » القهوة التى تختلف بين مكاتب الموظفين . وذلك القدح المميز الذى يخص « سعادة البك » دون غيره والذى يوضع أمامه أحياناً قبل أن يقدم قدح لضيوف .

عرفت من خلال المقدمات الأولى أنهم ثلاثة أطباء . وأنهم التحقوا بالعمل فى المشروع منذ بدايته . أى منذ سنتين . قال لى المدير المساعد :

نسأل . وعلينا أن نجيب » .

لاحظت أنكم جميعاً أطباء . ألا يوجد بينكم رجال اجتماع ، وتربية . وثقافة . وتعليم . وتخطيط قوة عاملة .

لا . فمشكلة تنظيم الأسرة مرتبطة في بلادنا بالصحة ولم تدخل بعد في مجالات التربية والتعليم . والعمل الاجتماعي والثقافي . نحن نحاول بشكل أساسي أن نتصل بالسيدات اللائي يترددن على مراكز رعاية الأمومة المختلفة سواء في الوحدات أو المستشفيات . وأن نقنعهن باتباع وسائل منع الحمل . إما باستخدام الأقراص الخاصة أو اللولب . وقد لاحظنا أن عدداً كبيراً من السيدات يلجأن إلى الإجهاض للتخلص من حمل غير مرغوب فيه . مما يعرض صحتهن . وحياتهن لمخاطر عديدة . ولذلك ننصحهن باتباع وسائل منع الحمل » .

« لاحظت في أثناء التسجيل المصور الذي استمعت إليه أنكم خلال السنتين . أي منذ بداية المشروع . حققتم نتائج سريعة . فإلام تعزون هذا النجاح ؟ » .

صمتوا مدة كأنهم يفكرون . ثم أجاب الطبيب الجالس بجواري بجملة قاطعة علت فيها نبرة التأكيد . فأثارت شكوكي :

« لأننا أظهرنا العلاقة الوثيقة بين صحة الأم والأطفال . وبين عدد مرات الإنجاب » .

« وبالنسبة للرجال ماذا فعلتم ؟ » .

« مازلنا في بداية مجهوداتنا . ولم نتوسع في عملنا بين الرجال حتى الآن » .

استمرت المناقشة نصف ساعة ولكنني أحسست بالفتور ينتابني بعد قليل . فلم أشعر بأنني اكتشفت جديداً ولم تشف بعض الإجابات غليلي أو تقنعني . فقمت واستأذنت . وجدت الآنسة سود في الحجرة الخارجية . تقدمت ناحيتي وقالت :

هل انتهيت ؟

قلت :

« نعم »

« السيارة تنتظرك فى الخارج لتحملك إلى الفندق . غداً فى الساعة السابعة فى الصباح الباكر سأمر بك بسيارتى لنأتى معاً إلى المكتب هنا . ثم نستقل سيارة أخرى نذهب بها لزيارة مستشفى للولادة تبعد عن بانجكوك مسافة ١٢٠ كيلومتراً تقريباً . سنقضى اليوم هناك ونعود آخر النهار . هل توافق على هذه الترتيبات » ؟

« أوافق عليها تماماً . وداعاً وإلى اللقاء باكراً صباحاً » .

حديث مع الآنسة « سون »

دق جرس التليفون فى حجرتى . نظرت إلى ساعة اليد فى معصمى فوجدتها تشير إلى الساعة السابعة إلا ربعاً رفعت السماعة . من الجانب الآخر جاء صوت فتاة تتحدث بالإنجليزية بتلك النبرات الآسيوية المميزة .

قالت : « صباح الخير . أنا سون » .

شعرت بشىء من الارتباك لأننى لم أكن مستعداً قلت :

« صباح الخير . لقد وصلت قبل الميعاد » .

« أعلم ذلك . تركت البيت مبكرة لأتفادى زحام السيارات » .

« سأكون معك بعد خمس دقائق » .

أعدت السماعة إلى مكانها وارتديت ملابسى بسرعة ، ثم هبطت فى المصعد إلى الصالة .

السيارة الصغيرة اليابانية « مازدا » تطن بصوت منتظم وهى تسرع عبر الشارع . والفتاة الصغيرة تقودها بثقة وسط الزحام المتزايد وأنا أجلس بجوارها أختلس النظرات إليها بين الحين والحين ، وأحاول أن أفهم

أى نوع من الفتيات هذه التى ترتدى الميني جيب بدون أن يبدو عليها أنها تريد استعراض فتنتها أو أنها تهتم بها . شعرها الطويل الأسود مسدل على كتفيها . ووجهها مريح خال من الصبغات والمساحيق .

قلـــت :

« هذه السيارة . ما رأيك فيهـــا ؟ »

« متينة وسريعة واستهلاكها فى الوقود قليل . إنها يابانية الصنع » .

سكتت لحظة لتتفادى موتوسيكلا برز فجأة من ناحية اليمين ثم استطردت :

« اليابان تبعث إلينا بتسعين فى المائة من السيارات التى نستوردها » .

« وفى باقى المجالات » .

« تزحف بسرعة : الساعات . والأقلام . والأقمشة الجاهزة ، وأجهزة الراديو والتليفزيون وآلات السينما والتصوير . وعدد كبير من السلع »

« أتنافس أمريكا إذن ؟ »

« بدأت . ولكن أمريكا مازالت مسيطرة عن طريق البنوك وشركات التأمين . والشركات التجارية » .

كنا قد وصلنا إلى مبنى مشروع تنظيم الأسرة . تركنا السيارة وصعدنا إلى حجرة صغيرة تحس فيها بالترتيب والنظافة شأن المكاتب التى رأيتها فى بانجكوك . أجلستنى على مقعد وقالت :

« أنت لم تتناول إفطارك بعد . أليس كذلك ؟ »

قلـــت :

« نعـــم » .

« هناك مطعم صغير بجوارنا . هيا بنا » .

هبطنا الدرجات من جديد ومشينا مسافة قصيرة عبر شارع ضيق تحيط به المبانى الحكومية ومساحات من الحشيش الأخضر . كل شىء هنا

نظيف لا تجد ورقة على الأرض . أو سيجارة . ظاهرة ملفتة للنظر تدركها أينما ذهبت .

جلسنا أمام المائدة الصغيرة تحت سقف من تيل المركب مشدود بحبال ملونة . تتدلى منه بعض الأعلام . وضع الصبي أمامنا كوبين من القهوة الساخنة بالبن وكعكة إسفنجية . شربت القهوة بنهم وأكلت الكعكة ثم أخرجت علبة السجائر . عرضت عليها أن تدخن ولكنها رفضت . اقترب منا الصبي فهمست بدفع الحساب ولكنها ألقت ناحيتي بنظرة صارمة فيها شيء قريب من الغضب فأوقفت يدي .

« أنت ضيفنا هنـــا » .

أخرجت بعض النقود من كيسها الصغير وأعطتها الصبي ثم انصرفنا .

. . .

السيارة « اللاندروفر » الخضراء تنهب طريق الأسفلت العريض الذي يمتد في شريط أسود لامع بين حقول الأرز حتى الأفق . السائق النحيف يقودها بسرعة وحذق . جلسنا أنا والفتاة في المقعد خلفه . من النافذة رأيت البيوت الخشبية . والحقول . وبساتين من الزهور البرية . وقنوات تغطيها النباتات المائية ذات الأوراق الخضراء العريضة المنتفخة . والزهور البنفسجية والبيضاء تشبه الاوركيد . وأسراب البط الأبيض . وبين الحين والحين جاموسة تتميز عن تلك التي تراها في مصر بقرونها الطويلة . أخذت أسأل عن بعض تفاصيل ما أراه . وبالتدريج تبخرت بقايا الكلفة التي أحسست بوجودها أول الأمر . أدركت السبب فجأة عندما بادرتني بسؤال :

« كم سنك يادكتور ؟ » .

قلـــت :

« تسع وأربعون سنة . وأنت ؟ »

« ست وعشرون » .

محظوظة أنت . حياتك كلها ما زالت أمامك . أما أنا فالجزء الأكبر منها أصبح ورائى .

ضحكت كأنها لم تأخذ كلامى مأخذ الجد . ورأيت عينيها تلمعان ببريق أضاء الوجه كله .

« ماهو عملك فى مشروع تنظيم الأسرة ؟

أنا إخصائية إعلام تخرجت فى كلية الآداب » .

« هل لديك إخوة » ؟

« لى أخ واحد أصغر منى فقط » .

« ووالداك » ؟

« والدى موظف على المعاش . ووالدتى تعمل مدرسة » .

« وهل أنت مستريحة فى عملك راضية عنه ؟

« إلى حد كبير ولكن . . . . . »

هزت كتفيها كأنها تشعر بشىء لا تعرف كيف تعبر عنه .

« ولكن . . . . . ماذا ؟

« أشعر أحياناً بعدم الرضى » .

« عم ؟ » .

« عن حياتى » .

« لماذا ؟ » .

« كأننى أسير فى طريق مسدود » .

« طريق مسدود ؟ لم أفهم ماتقصدينه » .

« أقصد أننى أفتقد الأمل الكبير » .

« وما هو الأمل الكبير ؟ »

« أن يصنع الإنسان شيئاً كبيراً وأن تكون أمامه فرصة لذلك » .

« أنت شابة وتعملين . . . والإنسان يحقق ما يريد عن طريق العمل » .

« ليس بالضرورة . فقد يكون العمل هو الطريق المسدود » .

« كيـــــف ؟ »

« إذا وجد من يسدون الطريق » .

« وهل تظنين أن هذه مشكلتك أنت فقط ؟ »

« لا . هى مشكلة جيل الشباب فى تايلاند » .

« لم أحس بهذا الانطباع . أغلب الشباب الذى رأيتهم بدا لى أنهم تأثروا بسطحيات الحياة الغربية : السيارة وطريقة اللبس . والأفلام ، والرقصات المجنونة . ولا شىء سوى هذا » .

« هذا جزء من الشباب فقط . الجزء الذى " تأمرك " ولكن أغلب الشباب يعانون مشاكل صعبة » .

« لمـــــاذا ؟ »

قطبت جبينها كأنها تفكر . ثم قالت :

« لا أعرف بالضبط . يبدو لى وكأن البلد يسيطر عليه كبار السن . هناك روتين . نحس أن البلد ليس بلدنا . إن مصالح فئة صغيرة هى التى تتحكم فيه .

« والشباب ؟ »

« نحس بعدم الارتياح ، بل بالتمرد إزاء كل ذلك ، ويبحث عن مخرج . ثم التعليم هنا باهظ التكاليف ، وفرص العمل محدودة . فليست هناك سياسة للتصنيع يمكن أن تستوعب الشباب . ولذلك بدأت تظهر مشكلة بطالة بين الشباب المتعلم » .

« وأنت ماذا تفعلين ؟ »

« لاشىء . أقوم بما يطلب منى وحسب » .

« كيف إذن تتغير الأشياء ؟ »

« وماذا أستطيع ؟ »
« من يريد شيئاً لا بد أن يحارب من أجله » .
« لا أعرف ما أريد » .
« تريدين على الأقل أن تتفتح أمامكم الفرص » .
« نعم بالطبع . ولكن ماذا أفعل وأنا وحدى ؟ »
« لست وحدك . لاتستسلمى . . . ينبغى ألا نستسلم أبداً » .
« ولكننى أشعر باليأس أحياناً ، كالتائهة وسط الزحام » .
« كلنا نشعر باليأس أحياناً » .
« كيف يمكن أن تتغير الأشياء ؟ هذا هو السؤال » .
« إنها تتغير بالفعل . ألم تتغير فى بلادكم ؟ »
صمتت لحظة وبدا عليها جهد التفكير .
« نعم تتغير . ولكن بصعوبة وبيطء » .
« وما هى أهم مظاهر التغيير ؟ »
ترددت من جديد .
« ربما الإحساس بأننا يجب أن نستقل ، أن نعتمد على أنفسنا أولا » .
« وكيف نما هذا الإحساس ؟ »
« مايحدث الآن فى آسيا ، أمريكا تقف مع تايوان لتستفيد ، وعندما تغيرت مصالحها تخلت عنها . وفيتنام . . . انسحابها من هناك أصبح مسألة وقت .
« ومـــاذا ؟ »
« بروز الصين ، والهند كقوتين كبيرتين » .
« تايلاند للتايلانديين . وآسيا للآسيويين » .
« بالضبط » .
« واليابانيون . ماذا يقول الناس عنهم ؟ »
« أغلب الناس يخشونهم » .

« لمــاذا ؟ »

« يقولون إنهم يريدون التوسع مرة أخرى » .

خشيت من ضيقها بأسئلتى فقلت :

« أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك ؟ »

رأيت الابتسامة الخاطفة تضيء من جديد .

« على العكس . الحديث مع الغريب ممتع . الجدة التى تنبع من الاختلاف . والرغبة فى الاكتشاف . لا حرج ولا قيود . فأنت هنا اليوم وغداً فى بلد آخر » .

ضحكت وقلت :

« ربما التقينا من جديد » .

« ربمــا » .

سكتنا لحظة ثم سألتها :

« هل أنت بوذية ؟ »

« نعــم » .

« هل تذهبين إلى المعبد ؟ »

« أحياناً يوم الأحد . كبار السن يذهبون بانتظام . ولكن الشباب ليسوا مثلهم » .

« لمــاذا ؟ »

« إنهم يطالبوننا باليقين . ونحن نطالبهم بالعقل » .

أبطأت السيارة من سرعتها وانحنت فى شارع ضيق . رأيت عدداً من المبانى البيضاء المنخفضة . توقفنا عن السير بالقرب من إحداها . ودلفنا من باب جانبى ضيق إلى مكتب فسيح . قابلتنا لفحات الهواء البارد المكيف . أسقطت جسمى فى مقعد من الجلد اللين لأستريح .

* *

كل شيء فى المستشفى لونه أبيض . ناصع البياض . الجدران .

obeikandi.com

والأبواب . والأرض . والأسرة والشراشيب . وملابس الأطباء والممرضات . كل شيء ما عدا الأدوات والأجهزة المعدنية اللامعة .

وقفت أستمع إلى شرح المدير .

« هنا في هذا العنبر نضع السيدات اللاتي أجريت لهن عمليات التعقيم . وتجرى هذه العملية بقطع قناة المبيض . وهي تعمل لكل سيدة تطلب إجراء العملية إما لأسباب صحية أو لأنها لا تريد . هي وزوجها . مزيداً من الأطفال . والمستشفى يحتوى على مائتي سرير . ومدرسة للتمريض . ومسكن للأطباء . والأطباء ليس لهم حق فتح عيادة ولكنهم يتقاضون أجوراً عالية . ونحن نهتم بالسيدات الحوامل قبل الولادة وفي أثنائها وبعدها . وعندما يحضرن في الزيارات إلى المستشفى فإننا نجمعهن في حجرة معدة لذلك ونوجه إليهن بعض الأحاديث المبسطة عن صحة الأم . وتغذية الأطفال . وفوائد تنظيم الأسرة ووسائله » .

« بماذا تفسر إقبال السيدات على الولادة داخل المستشفى ؟ »

« مستوى الخدمة الطبية . النظافة . الراحة . جودة الطعام . فهذا المستشفى نموذجي يخدم المدينة . وعدد سكانها ٨٠,٠٠٠ ، ويخدم القرى المجاورة لها » .

« وهل يوجد مستشفى آخر مثله ؟ »

« واحد آخر . هذا بالإضافة إلى المستشفيات الكبيرة في باتجكوك » .

« وبماذا تفسر النجاح السريع لتنظيم الأسرة في بلادكم ؟ »

« الآراء في هذا تختلف . ولكن لي رأياً في هذا الموضوع مبنياً على مشاهداتي للحياة في الريف والمدينة . فقد انتقلت كطبيب بين مختلف أرجاء البلاد . وأعتقد أن سرعة تقبل فكرة تنظيم الأسرة نابع من وضع المرأة » .

« كيـــف ؟ »

« المرأة فى تايلاند تشكل ٤٠ ٪ من القوة العاملة النشيطة وهى تعمل خارج المنزل فى عمل مستقل عن زوجها وعن البيت » .

« وما أثر ذلك ؟ »

« الاستقلال الاقتصادى . والشعور بقيمتها . وبذاتها . ونظرة جديدة إلى الحياة . إلى مستقبل الأسرة ومستقبل أطفالها » .

وقفت إلى جوار السيارة عند باب الفندق . مدت الفتاة يديها الاثنتين وأحاطت بهما يدى الممدودة . أحسست بحرارة الوداع فى اليدين . والوجنتين اللتين كستهما حمرة خفيفة وبريق العينين .

ترى ماذا ستأتى به الأيام ؟ صعدت إلى حجرتى . أعددت الحقائب وأودعتها عند الاستقبال . دفعت الحساب ثم توجهت إلى الصالون باحثاً عن مقعد . كان أمامى ساعتان من الزمن قبل ميعاد السيارة التى ستحملنى إلى المطار . جلست على المقعد وأخذت أقلب فى الصحف الموضوعة أمامى . طالعتنى العناوين المكتوبة بالبنط الأسود المربع .

« إجراءات جديدة لمواجهة الخطر الشيوعى » .

« متوسط الدخل فى تايلاند مائة دولار فى السنة » .

تسمرت عيناى على عنوان كبير فى وسط الصفحة :

« مصر تطلب سحب الخبراء السوفييت » .

جرت عيناى على السطور بسرعة فى لحظة ذابت المسافات الشاسعة ، وأحسست بذلك القلق الدفين الذى ينقض على المسافر أحياناً كما تنقض الطيور الجارحة من السماء الصافية . مددت يدى إلى الصحيفة وأخذت أقرأ الخبر من جديد .

مهما بعد الوطن !

الطائرة تسبح مرة أخرى فوق سطح العالم . والموسيقى الهادئة تصل إلى أذنيك وأنت جالس هكذا فوق عرش الدنيا بعيداً عنها ، وعن مشاكلها

تتأمل حياتك بنوع من الانفصال المريح وكأنها ليست حياتك ، وليست مشاكلك .

ولكن مهما كانت مسافات البحر والأرض التى تفصل بينك وبين القاهرة . ومهما كان الارتفاع الذى تصل إليه الطائرة فى الفضاء العريض ، فهناك لحظات تشعر فيها بحالة من الغربة الشديدة . برغبة فى العودة . بأن تترك كل شىء وتعود على الفور . إلى مكانك حيث ولدت . وترعرعت ، وعرفت معنى الوطن . بكل ماتحمل هذه المعرفة من سعادة وتعاسة يختلطان فى نسيج واحد متشابك فيها الخيوط البيضاء والسوداء لتصنع صورة فيها عذاب الفن وجماله .

أغلقت عينى وأسندت رأسى على ظهر المقعد . الليلة الأخيرة فى بانجكوك ربما هى التى أثارت فى كل هذا الشوق المتاجج إلى الناس والأشياء التى تركتها وسافرت .

المندوب المقيم لهيئة اليونيسيف فى جنوب شرق آسيا هو الأستاذ يحيى درويش . رجل طويل القامة . يتحدث بهدوء ، ويتحرك بهدوء . تشعر من أول لحظة أنه واثق من قدرته على التصرف . دعانى لتناول العشاء فى المنزل . فوافقت بشعور من السعادة إزاء اللقاء المنتظر مع هذه الأسرة . ذلك أن المسافر فى رحلة طويلة يعانى من الوحدة فى بعض الأحيان .

كنا قد اتفقنا على أن نلتقى فى بهو الفندق الساعة السابعة مساء . ليصطحبنى فى سيارته إلى المنزل . استغرقت المسافة ما يقرب من نصف ساعة اخترقنا فيها الشوارع العريضة اللامعة تتلألأ أضواؤها تحت سيل المطر المنهمر .

المنزل ذو الطابقين جدرانه البيضاء غارقة فى الظلام يحيطها سياج كثيف من الأشجار الاستوائية بأوراقها الخضراء المسطحة ، يسقط فوقها المطر بصوت رتيب ، يعلو ويهبط فى سكون الضاحية . خلعنا أحذيتنا

على الطريقة التايلاندية وعبرنا شرفة كبيرة عبر النوافذ المفتوحة إلى حجرة الاستقبال الواسعة الأرجاء. فالآسيويون فى هذه المنطقة من العالم لا يميلون إلى كثرة الحجر والجدران . ويفضلون المساحات الواسعة التى يمكن أن تستغل لمختلف الأغراض . والتى تعطى شعوراً « بالبراح » والراحة . حجرة الاستقبال التى دخلناها كانت مقسمة إلى عدة أركان . ركن لاستقبال الضيوف والجلوس . وركن للتليفزيون والراديو . وركن للقراءة . وجزء مستطيل على اليمين تحتله مائدة طويلة للطعام . ويفصل بينه وبين باقى الحجرة حاجز خشبى يشبه المشربية نحتت عليه أسماك . وعصافير . وزهور ملونة .

بعد دقائق كان الحديث يدور فى انسياب دائم . أحسست بفرحتهم بهذه الليلة يقضونها مع زائر غادر الوطن منذ زمن قريب يلتقطون منه أخبار الأصدقاء ، ويسألون عن أشياء تشغل بالهم . وأحسست أنا بالراحة فى جو هذه الأسرة المصرية .. كالمسافر يصل إلى بيته بعد سفر طويل . كان معنا السفير الأستاذ مصطفى عيسوى إلى جانب أفراد الأسرتين . رأيت الوجه الأسمر المفتوح لأحد الشبان الذين كانوا يجلسون معنا ورن فى أذنى السؤال الغاضب الذى وجهه إلينا :

« إلى متى نتحمل الوضع الذى تفرضه إسرائيل ؟ »

« وما الحـــل ؟ »

« أن نستخلص أرضنا بالسلاح . هل يوجد حل غير هذا ؟ »

سادت لحظات وجوم فى الحجرة .

° ° °

انتزعنى صوت هامس من تأملاتى :

« أتريد فنجاناً من القهوة ؟ »

تلفت إلى أعلى . وقف المضيف إلى جوارى يحمل وعاء من الزجاج يتصاعد منه البخار . شىء فى هذه الطائرة مختلف . الابتسامات المشرقة

المصطنعة . والأصوات الناعمة الآلية اختفت لتحل محلها الرقة التى لاتخلو من الجد .

أشكرك . متى نصل إلى سنغافورة ؟ .

بعد نصف ساعة » .

من النافذة رأيت المدينة تخرج من جوف الليل مثل بساط لا ينتهى من الأضواء الملونة تتحرك عليها السيارات كالديدان الفوسفورية . خرجت من باب المطار الضخم بحذائه تبدو كالرخام الأبيض فى النور الساطع المنبعث من أماكن خفية . أحمل فى صدرى شعوراً من الضيق ، فعند حاجز الجمرك ووجهت بالرجل يقول :

« من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« آها . . . من مصر » .

حملق فى وجهى بشىء من الوقاحة وقال :

« أمعك سلاح ؟ »

« لا » .

« مخدرات إذن ؟ »

« ولا مخدرات » .

« ما هذه الأنبوبة ؟ »

« أنبوبة مرهم للجروح » .

أخذ يقلبها بين يديه . رفع عنها الغطاء وضغط عليها . فحص قطعة من المرهم بين أصابعه . ثم أخذ يدفن أصابع يديه فى أركان الحقائب بعد قليل أشار بغلقها . وانتبه إلى مسافر آخر كان ينتظر دوره .

السيارة تمرق عبر الشوارع بتلك السرعة الجنونية التى تعودتها الآن . أخذت أتطلع إلى وجه السائق . البشرة البيضاء وشكل العينين توحيان بأنه صينى الأصل . أصبحت أستطيع التمييز نوعاً ما بين الأجناس المختلفة

فى هذه المنطقة . الهواء الساخن ينساب من النافذة المفتوحة . كل شىء هنا يذكرنى بباتجكوك . غير أن الأشجار المعلقة . والحدائق والمساحات الخضراء تملأ كل ركن من أركان المدينة ألمحها فى الضوء الأبيض الساطع المنبعث من أعمدة النور العالية الخفية كالعنق الرشيق .

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً عندما أدخلت جسمى المرهق تحت الأغطية الصوفية الناعمة . أحسست بنفسى أسبح فوق المرتبة الإسفنجية . وبالنوم يتغلغل إلى كيانى مع نغمات الموسيقى المنبعثة فى همس من مكان إلى جوار السرير .